المغني في التفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وتَرْجِيحَاتٍ وتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورةُ البُرُوجِ، سُورةُ الطَّارِقِ، سورةُ الأعلَى، سورةُ الغاشِيةِ، سورةُ الفَجْرِ، سُورةُ البَلَدِ، سُورةُ الشَّمسِ، سُورةُ اللَّيلِ، سُورةُ الضُّحى، سُورةُ الشَّرْحِ، سُورةُ التِّينِ

(المجلَّدُ الثَّالثُ والأربعونَ)

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتِرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.
لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ البُرُوجِ

سُورةُ البُرُوجِ

سورةُ البُرُوجِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (البُروجِ).[1]

وسُمِّيتْ أيضًا بـــ (السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ الله – ﷺ – كان يَقرأُ في الظُّهرِ والعصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ)).[2]

فضائل السورة وخصائصها:

كان النَّبيُّ – ﷺ –يقرأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه المتقدِّمِ.

---

(1) وجهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ البُروجِ في أوَّلِها، في قولِه تعالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (510/1).

(2) أخرجه أبو داودَ (805)، وأحمدُ (21018) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (307)، والنسائيُّ (979) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (805): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (1827)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (439/1).

سورةُ البُروجِ مكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرين.(3)

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

تسليةُ النَّبيِّ - ﷺ - وأصحابِه عمَّا أصابَهم مِن أعدائِهم، وتثبيتُ المؤمنينَ على الحقِّ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- افتِتاحُ السُّورةِ بقَسَمِ اللهِ تعالى ببَعضِ مخلوقاتِه.

2- ذِكرُ خبرِ أصحابِ الأُخْدودِ.

3- وعيدُ الطُّغاةِ الَّذين يَفْتِنون المؤمنينَ بعذابِ جهنَّمَ.

4- البِشارةُ بنَعيمِ الجنَّةِ الَّذي يَنتظِرُ المؤمنينَ.

5- التَّلويحُ ببَطشِ اللهِ الشَّديدِ، وذِكرُ بعضِ صِفاتِه تعالى.

6- ضربُ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وثَمودَ، وكيفَ كانت عاقِبةُ أمرِهم.

7- التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ المَجيدِ.

---

(3) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (431/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (423/4)، ((تفسير القرطبي)) (283/19)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (175/3).

سورةُ البُرُوجِ

الآيات (1–9)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ
الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ
بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)

غريب الكلمات:

الْبُرُوجِ: أي: النُّجومِ؛ لأنَّها تتبَرَّجُ، أي: تظهَرُ، أو مَنازِلِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وهي اثنا عَشَرَ بُرجًا، وسُمِّيت بالبُرُوجِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لهذه الكواكِبِ كالمنازِلِ لساكِنيها، وأصلُ (برج): البُروزُ والظُّهورُ، وأيضًا الملجأُ.

الْأُخْدُودِ: أي: الشَّقِّ العَظيمِ في الأرضِ يُحفَرُ مُستطيلًا، وأصلُ (خدد): يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ.

الْوَقُودِ: أي: الحطَبِ المَجعولِ للاتِّقادِ، وأصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ النَّارِ.

نَقَمُوا: أي: كَرِهُوا وأنكَروا وعابُوا، وأصلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه.

الْعَزِيزِ: أي: الَّذي اتَّصَفَ بالعِزَّةِ التَّامَّةِ: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدْرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالِبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ.

الْحَمِيدِ: أي: المحمودِ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودِ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خَلْقِه، المُستحِقِّ لكلِّ حَمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن محاسِنِ المحمودِ مع حُبِّه وإجلالِه وتعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ.

شَهِيدٌ: أي: شاهِدٌ، حاضرٌ، مُطَّلِعٌ، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، يَسمَعُ جميعَ الأصواتِ خَفِيِّها وجَلِيِّها، ويُبصِرُ جميعَ الموجوداتِ دقيقِها وجَليلِها، صغيرِها وكبيرِها، قد أحاط عِلْمُه بكلِّ شَيءٍ، ويَشهَدُ لعِبادِه وعلى عِبادِه بما عَمِلوه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ.

تفسير الآيات:

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1).

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما.(4)

كما قال تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [الفرقان: 61].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا [الحجر: 16].

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2).

أي: وأُقسِمُ بيومِ القيامةِ الَّذي وَعَد اللهُ تعالى عِبادَه بمَجيئِه والقَضاءِ فيه بيْنَهم، فيَبعَثُهم ويُحاسِبُهم ويُجازيهم فيه على أعمالِهم.

كما قال تبارك وتعالى: خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ [المعارج: 44].

---

(4) اختُلف في معنى: «البروج» في هذه الآية على أقوال: الأول: القصور.

الثاني: النجوم.

الثالث: الرمل والماء.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٢٦١) –مستندًا إلى اللغة– أنّ «معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر».

وعلَّل ذلك بأنّ «البروج جمع بُرْجٍ، وهي: منازل تُتَّخذ عالية عن الأرض مرتفعة.

ومن ذلك قول الله: ﴿وَلَوْ كُنْتُم فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَة﴾ [النساء: ٧٨]، وهي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر بُرْجًا، فمسير القمر في كلّ بُرْجٍ منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلًا، ثم يَسْتَسِرُّ ليلتين، ومسير الشمس في كل برج منها شهر».

وانتقد ابنُ عطية (٨/ ٥٧٥) القول الثالث قائلًا: «وهذا قول ضعيف».

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3).

أي: وأُقسِمُ بكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ.(5)

(5) اختُلف في معنى: ﴿وشاهِدٍ ومَشْهُودٍ﴾ على أقوال: الأول: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

الثاني: الشاهد: محمد – ﷺ –، والمشهود: يوم القيامة.

الثالث: الشاهد: الإنسان، والمشهود: يوم القيامة.

الرابع: الشاهد: محمد – ﷺ –، والمشهود: يوم القيامة.

الخامس: الشاهد: الله، والمشهود: يوم القيامة.

السادس: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم الجمعة.

السابع: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهود: يوم عرفة.

وعلَّق عليه ابنُ عطية (٨/ ٥٧٧) بقوله: «ووصف هذه الأيام بشاهدٍ لأنّها تشهد لحاضريها بالأعمال».

الثامن: الشاهد: آدم – عليه السلام – وجميع ذريته، والمشهود: يوم القيامة.

التاسع: الشاهد: يوم عرفة يوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة.

العاشر: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

الحادي عشر: الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم النحر.

الثاني عشر: الشاهد: يوم التروية، والمشهود: يوم عرفة.

الثالث عشر: الشاهد: ابن آدم، والمشهود: يوم القيامة.

الرابع عشر: الشاهد: أنت، يا ابن آدم، والمشهود: الله.

الخامس عشر: الشاهد: يوم القيامة، والمشهود: الناس.

ورجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٢٧٠) العموم، «وأن يقال: إنّ الله أقسم بشاهدٍ شَهِد، ومشهود شُهِد، ولم يُخْبِرنا مع إقسامه بذلك أيَّ شاهد وأيَّ مشهود أراد، وكلّ الذي ذكرنا أنّ العلماء قالوا هو المعنيُّ مما يستحق أن يقال له: شاهدٌ ومشهودٌ».

وكذا ابنُ القيم (٣/ ٢٧٧)، وقال: «وأعمُّ المعاني فيه أنه المُدرك والمُدرَك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي».

ثم علَّق بقوله: «وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذُكِرَتْ على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص».

وزاد ابنُ عطية (٨/ ٥٧٦ بتصرف) أقوالًا أخرى، وعلَّق على بعضها، فقال: «عن أبي مالك: أنّ الشاهد: عيسى، والمشهود: أُمّته.

وعن بعض الناس –كما في كتاب النقاش–: الشاهد: يوم الاثنين، والمشهود: يوم الجمعة.

وقال الترمذي: الشاهد: الملائكة الحفظة، والمشهود عليهم: الناس.

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4).

أي: أُهْلِكَ ولُعِنَ أولئك الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا.(6)

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((كان مَلِكٌ فيمَنْ كان قَبْلَكم، وكان له ساحِرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للمَلِكِ: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْه السِّحرَ، فبَعَث إليه غُلامًا

وقال عبد العزيز بن يحيى عند الثعلبي: الشاهد: محمد، والمشهود عليهم: أُمّته، نحو قوله تعالى: ﴿وجِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، أي: شاهدًا، قال: الشاهد: الأنبياء، والمشهود عليهم: أممهم.

وقال الحسين بن الفضل: الشاهد: أُمّة محمد، والمشهود عليهم: قوم نوح، وسائر الأمم حسب الحديث المقصود في ذلك.

وقال ابن جبير أيضًا: الشاهد: الجوارح التي تنطق يوم القيامة فتشهد على أصحابها، والمشهود عليهم: أصحابها.

وقال بعض العلماء: الشاهد: الملائكة المتعاقبون في الأُمّة، والمشهود: قرآن الفجر، وتفسيره قول الله تعالى: ﴿إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٨٧].

وقال بعض العلماء: الشاهد: النجم، والمشهود عليه: الليل والنهار، أي: يشهد النجم بإقبال هذا وتمام هذا، ومنه قول النبي – ﷺ –: «حتى يطلع الشاهد»، «والشاهد: النجم».

وقال بعض العلماء: الشاهد: الله تعالى والملائكة وأولو العلم، والمشهود به: الوحدانية، وأنّ الدين عند الله الإسلام.

وقيل: الشاهد: مخلوقات الله تعالى، والمشهود به: وحدانيته».

(6) اختُلف في الذين أحرقتهم النار مَن هم؟ على قولين: الأول: قوم كانوا أهل كتاب من بقايا المجوس.

الثاني: أنّ النار أحرقت الكفار الذين فَتنوا المؤمنين بإلقائهم في النار.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٢٧٧) –مستندًا إلى دلالة العقل– القول الثاني، وعلَّل ذلك بأنّ «الله أخبر أنّ لهم عذاب الحريق مع عذاب جهنم، ولو لم يكونوا أُحرِقوا في الدنيا لم يكن لقوله: ﴿ولَهُمْ عَذابُ الحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] معنًى مفهوم، مع إخباره أنّ لهم عذاب جهنم؛ لأنّ عذاب جهنم هو عذاب الحريق مع سائر أنواع عذابها في الآخرة».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٧٨) أنه رأى «في بعض الكتب أنّ أصحاب الأخدود هو مُحرِّق، وأنه الذي حرق من بني تميم المائة».

ثم علَّق عليه بقوله: «ويعترض هذا القول بقوله تعالى: ﴿وهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧]، فينفصل عن هذا الاعتراض بأنّ هذا الكلام مُنقَطِع مِن قصة أصحاب الأخدود، وأنّ المراد بقوله تعالى: ﴿وهُمْ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات».

يعلِّمُه، فكان في طريقِه إذا سلَكَ راهِبٌ، فقعَد إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجبَه، فكان إذا أتى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وقعَد إليه، فإذا أتَى السَّاحِرَ ضَربَه، فشكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسَني أهلي، وإذا خَشِيتَ أهْلَك فقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ، فبَيْنَما هو كذلك إذ أتَى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَتِ النَّاسَ، فقال: اليومَ أعلَمُ آلسَّاحِرُ أفضَلُ أمِ الرَّاهِبُ أفضَلُ؟ فأخَذ حَجَرًا، فقال: اللَّهُمَّ إن كان أمرُ الرَّاهِبِ أحَبَّ إليك مِن أمرِ السَّاحِرِ فاقتُلْ هذه الدَّابَّةَ؛ حتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فرماها فقَتَلها، ومضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخبرَه، فقال له الرَّاهِبُ: أيْ بُنَيَّ، أنت اليومَ أفضَلُ مِنِّي، قد بلَغ مِن أمْرِك ما أرى! وإنَّك ستُبتلَى، فإنِ ابتُلِيتَ فلا تَدُلَّ علَيَّ، وكان الغُلامُ يُبرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، ويُداوي النَّاسَ مِن سائرِ الأدواءِ، فسَمِعَ جَليسٌ للمَلِكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما هاهنا لك أجْمَعُ إنْ أنت شفَيْتَني، فقال: إنِّي لا أَشْفي أحدًا، إنَّما يَشفي اللهُ، فإنْ أنت آمَنْتَ باللهِ دَعَوتُ اللهَ فشَفاك، فآمَنَ باللهِ فشَفاه اللهُ، فأتَى المَلِكَ فجلَس إليه كما كان يجلِسُ، فقال له المَلِكُ: مَن رَدَّ عليك بَصَرَك؟! قال: رَبِّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: رَبِّي وربُّك اللهُ! فأخَذه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الغلامِ، فجِيءَ بالغُلامِ، فقال له المَلِكُ: أيْ بُنَيَّ، قد بلَغ مِن سِحْرِك ما تُبرِئُ الأَكْمَهَ[7] والأبْرَصَ، وتفعَلُ وتفعَلُ! فقال: إنِّي لا أَشفي أحدًا، إنَّما يَشْفي اللهُ، فأخَذه فلم يَزَلْ

---

(7) الأَكْمَهَ: هو الَّذي يُولدُ أعمى.
يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (209/4).

يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الرَّاهِبِ، فجيءَ بالرَّاهِبِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبَى، فدَعا بالمِئْشارِ،[8] فوضَع المِئْشارَ في مَفرِقِ رأسِه،[9] فشَقَّه حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بجليسِ المَلِكِ فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فوُضِعَ المِئْشارُ في مَفرِقِ رأسِه، فشَقَّه به حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بالغلامِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فدفعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصعَدوا به الجَبَلَ، فإذا بلَغْتُم ذِرْوتَه،[10] فإنْ رَجَع عن دينِه وإلَّا فاطْرَحوه، فذَهَبوا به، فصَعِدوا به الجَبَلَ، فقال: اللَّهمَّ اكْفِنِيهم بما شِئْتَ، فرَجَف بهم الجبلُ فسَقَطوا، وجاء يمشي إلى المَلِكِ! فقال له المَلِكُ: ما فعَلَ أصحابُك؟! قال: كَفانِيهِمُ اللهُ، فدفعه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به فاحمِلوه في قُرقُورٍ،[11] فتوسَّطوا به البَحْرَ، فإن رجعَ عن دينِه وإلَّا فاقذِفوه، فذَهَبوا به، فقال: اللَّهمَّ اكفِنِيهم بما شِئتَ، فانكفَأَتْ[12] بهم السَّفينةُ، فغَرِقوا، وجاء يمشي إلى المَلِكِ! فقال له الملِكُ: ما فعل أصحابُك؟! قال:

---

(8) المِئْشارُ والمِنشارُ: هو آلةُ النَّشرِ والقطعِ الَّذي يُشَقُّ بها الخشَبُ.

يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (181/6)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (3467/8).

(9) مَفرِقِ رأسِه: هو المكانُ الَّذي يفترِقُ فيه الشَّعرُ في وسَطِ الرَّأسِ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (398/3).

(10) ذِرْوتَه: أي: أعلاه.

وذروةُ كلِّ شَيءٍ: أعلاه.

يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (556/8).

(11) قُرْقُورٍ: هو السَّفينةُ العظيمةُ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (48/4).

(12) انكَفَأَت: أي: انْقَلَبَت.

يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (306/6).

كفانيهم اللهُ، فقال للمَلِكِ: إنَّك لسـت بقاتلِي حتَّى تَفعَلَ ما آمُرُك به، قال: وما هو؟ قال: تجمَعُ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصلِبُني على جِذْعٍ، ثمَّ خُذْ سَهمًا من كِنانتي،[13] ثمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ،[14] ثمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ ارمِني؛ فإنَّك إذا فعَلْتَ ذلك قتَلْتَني، فجمَعَ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذعٍ، ثمَّ أخذَ سَهمًا مِن كنانتِه، ثمَّ وَضَع السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثمَّ قال: باسمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثمَّ رماه فوقع السَّهمُ في صُدْغِه،[15] فوَضَع يَدَه في صُدْغِه في موضِعِ السَّهمِ، فمات، فقال النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، فأُتِيَ المَلِكُ فقيل له: أرأَيْتَ ما كنتَ تَحذَرُ؟ قد -واللهِ- نزَل بك حَذَرُك؛ قد آمَنَ النَّاسُ! فأمَر بالأُخدودِ في أفواهِ السِّكَكِ،[16] فخُدَّتْ،[17] وأَضرَمَ النِّيرانَ، وقال: مَن لم يَرجِعْ عن دينِه فأَحْمُوه فيها،[18] أو قيل له:

---

(13) الكِنانة: الوِعاءُ الَّذي فيه السِّهامُ.

يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (21/1).

(14) كَبِدِ القَوسِ: أي: وسَطِها.

يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (209/4).

(15) صُدْغِه: هو ما بيْنَ العَينِ إلى شَحمةِ الأذُنِ.

يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (168/1).

(16) أفواهِ السِّكَكِ: أي: أبوابِ الطُّرُقِ.

يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (306/6).

(17) فخُدَّتْ: أي: شُقَّتِ الأخاديدُ.

يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (169/1).

(18) فأَحْمُوه: أي: ارْمُوه.

يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (306/6).

اقتَحِمْ، ففعَلوا، حتَّى جاءت امرأةٌ ومعها صَــبيٌّ لها، فتقاعَسَــت[19] أن تقَعَ فيها، فقال لها الغُلامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِري؛ فإنَّكِ على الحَقّ)).[20]

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5).

أي: وذلك الأُخدودُ متأجِّجٌ بالنَّارِ الَّتي أُضــرِمَت بالحَطَبِ أو غَيرِه حتَّى اشــتَدَّ توَقُّدُها ولهيبُها، واشتَعَلَت اشتِعالًا عَظيمًا.

إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6).

أي: لُعِنَ أولئك الكُفَّارُ حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وحافَاتِه!

وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7).

أي: وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يحترِقونَ فيه.

---

(19) فتقاعَسَتْ: أي: توَقَّفَت، ولزِمَت مَوضِعَها.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (133/18).
(20) رواه مسلم (3005).

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8).

أي: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ شَــيئًا سِــوى إيمانِهم باللهِ الممتَنعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ [المائدة: 59].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ،[21] وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!)).[22]

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9).

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: الَّذي يَملِكُ وَحْدَه جَميعَ السَّمَواتِ السَّبْعِ والأرضِ، وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ.

---

(21) ما دُونَ لَحمِه: أي تحتَه أو عندَه.
وفيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها.
يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (3734/12)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (60/6).
(22) رواه البخاري (3612).

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ومِن ذلك إحراقُ الكافِرينَ للمُؤمِنينَ في الأُخدُودِ، وسيُجازيهم عليه.

سورةُ البُرُوجِ

الآيتان (10–11)

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)

غريب الكلمات:

فَتَنُوا: أي: أَحْرَقوا، يُقالُ: فَتنتُ الشَّيءَ: إذا أحرَقْتَه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ.

الحْرِيقِ: أي: النَّارِ، وأصلُ (حرق): يدُلُّ على حرارةٍ والْتِهابٍ.

تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10).

أي: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمنينَ والمؤمناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لصَـــدِّهم عن الحقّ، ثمَّ لم يتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلهم عَذابُ جهنَّمَ، ولهم عذابُ الحَريقِ.[23]

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْــرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ [الأنفال: 50].

(23) المقصود بالفتنة هنا: الإحراق بالنار.

وقد ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٧٩) أنّ المراد بالكفار في قوله تعالى: ﴿وهُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُــهُود﴾: قريش، وعليه يختلف معنى الفتنة هنا، فيكون مرادًا به: الامتحان والتعذيب، ثم علَّق عليه بقوله: «ويُقوّي هذا التأويل بعض التقوية قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ لأنّ هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كُفرهم، وأمّا قريش فكان فيهم وقت نزول الآية مَن تاب بعد ذلك وآمن بمحمد – ﷺ –، و» جهنم «و» الحريق «طبقتان من النار، ومَن قال: إنّ النار خرجت فأحرقت الكفار القعود.

جعل الحريق في الدنيا».

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ

(11).

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: إنَّ الَّذين آمَنُوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ فامتَثَلوا أوامِرَه، واجتَنَبوا نواهِيَه: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ.

ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ.

أي: ما يَحصُلُ في الآخِرةِ لِمَن آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ: هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا يُدانيه فوزٌ.

سورةُ البُرُوجِ

الآيات (12–16)

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو

الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16)

غريب الكلمات:

بَطْشَ: البطشُ: الانتقامُ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ.

الْوَدُودُ: أي: المحِبُّ لأوليائِه، والوُدُّ أصفَى الحُبِّ وألطفُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محَبَّةٍ.

ذُو الْعَرْشِ: أي صاحبُ العَرشِ، والعرشُ معروفٌ فوقَ السَّمَواتِ، وهو الَّذي استوى اللهُ عليه، وله قَوائِمُ تحمِلُه المَلائكةُ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ، وهو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعلاها وأكبَرُها، والعرشُ في اللُّغةِ سَريرُ المَلِكِ، وهو سريرٌ بالنِّسبةِ إلى ما فوقَه، وكالسَّقفِ بالنِّسبةِ إلى ما تحتَه، وقيل: هو في الأصلِ شيءٌ مُسقَّفٌ، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنِيٍّ، وسُمِّيَ العرشُ بذلك؛ لارتفاعِه.

الْمَجِيدُ: أي: الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، والمجْدُ: العُلُوُّ والعَظَمةُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12).

أي: إنَّ أخْذَ ربِّك –يا محمَّدُ– وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقَويٌّ عَظيمٌ![24]

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102].

وقال سُـــبحانَه: كَدَأْبِ آَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 52].

وقال عزَّ وجَلَّ: يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ [الدخان: 16].

إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13).

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَن يَبدَأُ بإيجادِ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه.[25]

---

(24) ذكر ابنُ جرير (٢٤/ ٢٧٦) اختلافًا في موضـع جواب القَسـم بقوله: ﴿والسَّـماءِ ذاتِ البُرُوجِ﴾ على أقوال: الأول: أنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

الثاني: أنه قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أصْحابُ الأُخْدُودِ﴾.

الثالث: أنه متروك، ثم استؤنف موضع الجواب بالخبر.

ثم رجَّح (٢٤/ ٢٧٧) –مسـتندًا إلى اللغة– القول الثالث، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ علامة جواب القسـم لا تحذفها العرب من الكلام إذا أجابته».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٥٧٨ بتصرف) عن آخرين: «أنّ جواب القَسم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا المُؤْمِنِينَ﴾».

(25) اختُلِف في معنى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ ويُعِيدُ﴾ على قولين: الأول: يُبدئ الخَلْق ويعيدهم.

الثاني: يُبدئ العذاب ويعيده.

كما قال الله تبارك وتعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ [العنكبوت: 19].

وقال سُبحانَه: اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [الروم: 11].

وقال الله سبحانه وتعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [الروم: 27].

وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14).

أي: وهو الغفورُ لذُنوبِ عِبادِه، فيَمحوها ويُذهِبُ آثارَها، ويَستُرُها، وهو المحِبُّ لعبادِه التَّائِبينَ والصَّالِحِينَ.

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ [هود: 90].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنْتُه بالحَرْبِ،[26] وما تقَرَّبَ إليَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إليَّ ممَّا افتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عبدي يتقَرَّبُ

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٢٨٣) -مستندًا إلى السياق- القول الثاني، وعلَّل ذلك بأنّ «الله أتبَع ذلك قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، فكان للبيان عن معنى شدة بطشه الذي قد ذكره قبله، أشبه به بالبيان عمّا لم يَجْرِ له ذِكْرٌ؛ ومما يؤيد ما قلنا من ذلك وضوحًا وصِحّةً قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾، فبيَّن ذلك عن أنّ الذي قبله من ذِكْر خبره عن عذابه وشدة عقابه».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٥٧٩) عن «ابن عباس ما معناه: إنّ ذلك عام في جميع الأشياء».

ثم وجَّهه بقوله: «فهي عبارة عن أنه يفعل كلّ شيء، أي: يُبْدِئ كلّ ما يبدأ ويُعِيدُ كل ما يُعاد، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأشياء».

(26) آذَنْتُه: أي: أعلَمْتُه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (1544/4).

إِلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويَدَه الَّتي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمشي بها).[27]

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى إذا أحَبَّ عَبدًا نادى جِبريلَ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جِبْريلُ، ثمَّ يُنادي جِبْريلُ في السَّماءِ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ويُوضَعُ له القَبولُ في أهلِ الأرضِ)).[28]

---

(27) أي: يجعَلُ اللهُ حواسَّه وآلاتِه وسائِلَ إلى رِضائِه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه.

وقيل: أي: يجعَلُ اللهُ سُلطانَ حُبِّه غالِبًا عليه حتَّى لا يرى إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ تعالى، ولا يَسمَعَ إلَّا ما يحِبُّه، ولا يَفعَلُ إلَّا ما يحِبُّه، ويكونُ اللهُ سُبحانَه في ذلك له يدًا وعَونًا ووكيلًا يَحمي سَمْعَه وبَصَرَه ويَدَه ورِجْلَه عمَّا لا يَرضاه.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (4/1544).

وقال ابن رجب: (المرادُ بهذا الكلامِ: أنَّ مَن اجتهَد بالتَّقرُّبِ إلى اللهِ بالفرائضِ، ثمَّ بالنَّوافلِ؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه مِن درجةِ الإيمانِ إلى درجةِ الإحسانِ، فيَصيرُ يَعبُدُ اللهَ على الحُضورِ والمُراقَبةِ كأنَّه يَراه، فيَمتلِئُ قلبُه بمَعرِفةِ اللهِ تعالى، ومَحبَّتِه، وعظَمَتِه، وخَوفِه، ومَهابَتِه، وإجلالِه، والأُنسِ به، والشَّوقِ إليه، حتَّى يَصيرَ هذا الَّذي في قلبِه مِن المعرفةِ مُشاهَدًا له بعَينِ البصيرةِ...

فمتى امتلأ القلبُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، محَا ذلك مِن القلبِ كلَّ ما سِواه، ولم يَبْقَ للعبدِ شَيءٌ مِن نفْسِه وهَواه، ولا إرادةٌ إلَّا لِما يُريدُه منه مَولاه، فحينئذٍ لا يَنطِقُ العبدُ إلَّا بذِكرِه، ولا يتحرَّكُ إلا بأمْرِه، فإنْ نطَقَ نطَقَ باللهِ، وإنْ سَمِعَ سمِعَ به، وإنْ نظَرَ نظَرَ به، وإنْ بطَشَ بطَشَ به).

((جامع العلوم والحكم)) (2/345-347).

رواه البخاري (6502).

(28) رواه البخاري (7485) واللَّفظُ له، ومسلم (2637).

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15).

أي: هو الَّذي له العَرْشُ العظيمُ، وهو الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ الكَثيرةُ الواسِعةُ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ الْمَجِيدِ بكَسْرِ الدَّالِ، صِفةً للعَرْشِ، أي: العَرْشُ المتَّصِفُ بالمجْدِ.(29)

2- قِراءةُ الْمَجِيدُ بضَمِّ الدَّالِ، صِفةً لله سُبحانَه وتعالى، أي: اللهُ المتَّصِفُ بالمجْدِ.(30)

فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16).

أي: مهما أراد شيئًا فعَلَه، ولا يَمنَعُه مانعٌ مِن فِعلِ ما أراد في مُلْكِه وخَلْقِه، ومِن ذلك مَغفِرةُ ذُنوبِ عِبادِه المؤمِنينَ، وشِدَّةُ البَطْشِ بالكافِرينَ والظَّالِمينَ.

---

(29) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (399/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (136/3)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 757).

(30) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (399/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (136/3)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 757).

سورةُ البُرُوجِ

الآيات (17-22)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)

غريب الكلمات:

مُحِيطٌ: أي: عالِمٌ بهم، وقادِرٌ عليهم، وهم لا يُعجِزونَه ولا يَفوتونَه، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ.

تفسير الآيات:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17).

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ لكُفْرِهم باللهِ ورُسُلِه؟

فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18).

أي: فِرْعَونَ الَّذي كَذَّبَ هو وقَومُه بموسى عليه السَّلامُ، وقومِ ثَمودَ الَّذين كَذَّبوا نبيَّهم صالِحًا عليه السَّلامُ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [الفجر: 9-10].

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19).

أي: لا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ؛ فسَجِيَّتُهم الدَّائِمةُ وعادتُهم المستَمِرَّةُ هي شِدَّةُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ والبَعْثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فهم مُنغَمِسونَ فيه؛ عنادًا منهم، واتِّباعًا لأهوائِهم.

كما قال تعالى: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ [الروم: 29].

وقال سُبحانَه: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ [ص: 2].

وقال عزَّ وجلَّ: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ [الانشقاق: 22].

وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20).

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها؛ فهُم في قَبْضتِه، وهو قادِرٌ على عَذابِهم، فلا يُعجِزونه.

كما قال تعالى: وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ [البقرة: 19].

وقال سُبحانَه: وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [الأنفال: 47].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ [الفجر: 14].

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21).

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ الكُفَّارُ في القُرآنِ، وإنَّما هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (22)﴾.

أي: القَرآنُ مَكتوبٌ في لَوحٍ محفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومحفوظٍ وسالِمٍ مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه.(31)

---

(31) ممَّن قال في الجملة: إنَّ المرادَ: محفوظٌ مِن الزِّيادةِ والنَّقصِ، والتَّحريفِ والتَّبديلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/286)، ((تفسير ابن كثير)) (8/ 373)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 143).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محفوظٌ عندَ الله تعالى مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه: القرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (19/298).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والسعدي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (4/463)، ((تفسير البغوي)) (5/237)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/427)، ((تفسير السعدي)) (ص: 919).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هو قرآنٌ كريمٌ، مُثبَتٌ في لَوحٍ محفوظٍ).

((تفسير ابن جرير)) (24/286).

وقال الواحدي: (﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ عندَ الله، وهو أُمُّ الكتابِ، منه نُسِخ القرآنُ والكُتبُ، وهو الَّذي يُعرَفُ باللَّوحِ المحفوظِ مِن الشَّياطينِ، ومِن الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ).

((الوسيط)) (4/463).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّوحُ كائنٌ قُدسيٌّ مِن كائناتِ العالَمِ العُلويِّ المغَيَّباتِ...

واقتَضَت هذه الآيةُ أنَّ القُرآنَ كُلَّه مُسَجَّلٌ فيه).

((تفسير ابن عاشور)) (30/253).

وقال ابن عثيمين: (القرآنُ الكريمُ: هل هو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ بهذه الآياتِ والحروفِ، أو أنَّ المكتوبَ في اللَّوحِ ذِكْرُه، وأنَّه سيَنزِلُ على محمَّدٍ - ﷺ -، وأنَّه سيَكونُ نورًا وهُدًى للنَّاسِ، وما أشْبَهَ ذلك؟ ففيه احتِمالٌ: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهِرِ النُّصوصِ، قُلْنا: إنَّ ظاهِرَها أنَّ القرآنَ كلَّه مكتوبٌ جُملةً وتفصيلًا، وإنْ نَظَرْنا إلى أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يتكلَّمُ بالقرآنِ حينَ نُزولِه، قُلْنا: إنَّ الَّذي كُتِب في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكرُ القرآنِ، ولا يَلزَمُ مِن كَونِ ذِكْرِه في اللَّوحِ المحفوظِ أن يكونَ قد كُتِب فيه؛ كما قال اللهُ تعالى عن القرآنِ: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 196] ؛ يعني: كُتُبَ الأوَّلينَ، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ لم يوجَدْ نصُّه في الكُتبِ السَّابقةِ، وإنَّما وُجِد ذِكرُه، ويمكنُ أن نقولَ مِثلَها في قولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، أي: ذِكرُه في هذا اللَّوحِ).

كما قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [الواقعة: 77 – 79].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1– قِراءةُ: مَحْفُوظٌ بضَمِّ الظَّاءِ، صِفةً للقُرآنِ، أي: القُرآنُ محفوظٌ.(32)

2– قِراءةُ: مَحْفُوظٍ بكَسْرِ الظَّاءِ، صِفةً للَّوحِ، أي: القُرآنُ في اللَّوحِ المحفوظِ.(33)

((شرح العقيدة الواسطية)) (197/2، 198).

واختار في موضعٍ آخَرَ أنَّ المعنى أنَّه ذُكِر في اللَّوحِ المحفوظِ بالمَجْدِ وبالعَظَمةِ.

يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (213/1).

وقال أيضًــا: (قولُه تعالى: فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ يعني بذلك اللَّوحَ المحفوظَ عندَ الله عزَّ وجلَّ، الَّذي هو أُمُّ الكتابِ، كما قال اللهُ تبارَك وتعالى: يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ [الرعد: 39].

وهذا اللَّوحُ كتَبَ اللهُ به مَقاديرَ كلِّ شَيءٍ، ومن جملةِ ما كتب به أنَّ هذا القرآنَ سيَنزِلُ على محمَّدٍ – ﷺ –، فهو في لَوحٍ محفوظٍ).

((تفسير ابن عثيمين– جزء عم)) (ص: 143).

(32) قرأ بها نافعٌ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (399/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (137/3)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (396/6).

(33) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (399/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (137/3)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (396/6)، ((تفسير ابن عاشور)) (255/30).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الطَّارِقِ

سُورةُ الطَّارِقِ

سورةُ الطَّارِقِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّارِقِ).[34]

وسُمِّيَت أيضًا بـ (السَّماءِ والطَّارِقِ)؛ فعن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - كان يَقرأُ في الظُّهرِ والعَصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارِقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُروجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ)).[35]

فضائل السورة وخصائصها:

كان النَّبيُّ - ﷺ - يَقرَأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:

كما في حديثِ جابِرِ بنِ سَمُرةَ -رَضِيَ اللهُ عنه- المتقَدِّمِ.

---

(34) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الطَّارِقِ في أوَّلِها؛ في قَولِه: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/512)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/257).

(35) أخرجه أبو داودَ (805)، وأحمدُ (21018) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (307)، والنسائيُّ (979) باختلافٍ يسيرٍ.
قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (805): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (1827)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (1/439)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (21018) وتخريج ((سنن أبي داود)) (805).

سورةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[36]

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

إقامةُ الأدِلَّةِ على قدرةِ اللهِ تعالى، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سُبحانَه، وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- القَسَمُ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حَفَظةٌ مِنَ الملائِكةِ.

2- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على البَعثِ.

3- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ الكريمِ، وصِدقِ ما ذُكِرَ فيه من البَعثِ، وإثباتُ أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

4- تهديدُ المُشرِكينَ، وتَثبيتُ النَّبِيِّ - ﷺ -، ووَعْدُه بأنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ.

---

(36) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (435/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (428/4)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (178/3).

سورةُ الطَّارِقِ

الآيات (1–10)

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا
عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ
الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا
نَاصِرٍ (10)

غريب الكلمات:

وَالطَّارِقِ: أي: الكوكَبِ أو النَّجمِ الَّذي يَظهَرُ باللَّيلِ ويَختفي بالنَّهارِ، يُقالُ: طَرَقَ يَطرُقُ طُروقًا، أي: جاء لَيلًا، وأصلُ (طرق): يدُلُّ على الإتيانِ مَساءً.

الثَّاقِبُ: أي: المُضيءُ المتوَهِّجُ، يُقالُ: ثَقَبَ النَّجمُ: إذا أضاء، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ.

مَاءٍ دَافِقٍ: أي: ذي دَفْقٍ، أو مَدفوقٍ، والدَّفْقُ: صَبٌّ فيه دَفعٌ وسَيَلانٌ بسُرعةٍ، وهو المَنِيُّ، وأصلُ (دفق): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ قُدُمًا.

الصُّلْبِ: أي: الظَّهرِ، وقيل: كلُّ شَيءٍ مِن الظَّهرِ فيه فَقارٌ فهو صُلبٌ، وأصلُ (صلب) هنا: يدُلُّ على الشِّدَّةِ والقوَّةِ، وسُمِّيَ الظَّهرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّتِه وصَلابَتِه وشِدَّتِه.

وَالتَّرَائِبِ: أي: ضُلوعِ الصَّدرِ، ومَوضِعِ القِلادةِ مِنه، واحِدتُها: تَريبةٌ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على تساوي الشَّيئَينِ.

تُبْلَى: أي: تُختَبَرُ وتَظهَرُ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الاختبارِ.

السَّرَائِرُ: أي: سرائِرُ القُلوبِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأعمالِ، جمعُ سريرةٍ، وأصلُ (سرر): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1).

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ، وأُقسِمُ بالطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا.[37]

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2).

أي: وما أعلَمَك –يا محمَّدُ– بالطَّارِقِ الَّذي عظَّمْته بالقَسَمِ به؟

النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3).

أي: هو النَّجْمُ المتوقِّدُ النَّافِذُ.[38]

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4).

---

(37) ذكر ابنُ كثير (١٤/ ٣١٥) أنّ قتادة قال في معنى الآية: «إنما سُمّي النجم طارقًا؛ لأنه إنما يُرى بالليل ويختفي بالنهار».

ثم علَّق عليه بقوله: «ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: «نهى أن يطرق الرجل أهله طروقًا».

أي: يأتيهم فجأة بالليل.

وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء: «إلا طارقًا يطرق بخير، يا رحمن»».

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٨٣) قولًا ولم ينسبه أنّ معنى: ﴿والسَّماءِ والطّارِقِ﴾: «والسَّماء وجميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالى بعد ذلك –على جهة التنبيه– أجلَّ الطارقات قدرًا وهو النَّجم الثّاقِبُ».

ثم وجَّهه بقوله: «فكأنه تعالى قال: وما أدراك ما الطارق حقّ الطارق».

(38) ذكر ابنُ القيم (٣/ ٢٨٥) أن المراد بـ ﴿النجم﴾ الجنس لا نجم معين.

ثم علَّق على ما أفاده قول ابن زيد بقوله: «ومَن عيّنه بأنه الثُّريّا، أو زُحَل؛ فإنْ أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه».

أي: ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: 10 – 12].

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5).

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مُتفكِّرًا مِن أيِّ شَيءٍ خلَقه ربُّه سُبحانَه.

كما قال تعالى: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [عبس: 17–18].

خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6).

أي: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يَخرُجُ دَفْقًا.

كما قال تعالى: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ [النحل: 4].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى [النجم: 45–46].

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7).

أي: يَخرُجُ هذا الماءُ –الَّذي خَلَقَ اللهُ منه الإنسانَ– مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ.(39)

---

(39) اختُلف في معنى: «الترائب» وموضعها في هذه الآية على أقوال: الأول: الترائب موضع القِلادة من صدر المرأة.
الثاني: ما بين المَنكِبين والصدر.

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8).

أي: إنَّ اللهَ الخالِقَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ[40] حَيًّا بَعْدَ مَوتِه.

الثالث: هي الأضلاع التي أسفل الصُّلب.

الرابع: أنه يخرج من بين صُلب الرجل ونَحره.

الخامس: اليدان والرجلان والعينان.

السادس: هي عصارة القلب.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٢٩٦) القول الأول مستندًا إلى الأعرف من كلام العرب، وهو قول ابن عباس من طريق العَوفيّ، وقول سعيد بن جُبَير من طريق عطاء وما في معناهما، واستشهد ببيتين من الشعر.

واستدرك ابنُ عطية (٨/ ٥٨٥) على القول الخامس والسادس قائلًا: «وفي هذه الأقوال تحكُّم على اللغة».

(40) اختُلف في مرجع الهاء من قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ في هذه الآية على قولين: القول الأول: أنها تعود إلى الماء، وفي معناها ثلاثة أقوال: أحدها: إنّ الله على ردّ النُّطفة في الإحليل لقادر.

ثانيها: على ردّ الماء في الصُّلب لقادر.

ثالثها: إنه على حبس ذلك الماء لقادر.

القول الثاني: أنها تعود على الإنسان، وفي معناها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه على ردّه ماءً كما كان قبل أن يَخلقه منه لَقادر.

ثانيها: أنه على رجْعه مِن حال الكِبَر إلى حال الصغر.

ثالثها: إنه على إحيائه من بعد مماته لَقادر.

ووجَّه ابن عطية (٨/ ٥٨٦ بتصرف) قول من قال: إنّ المعنى: يُرْجِعه من حال الكِبَر إلى حال الصغر، ومَن قال: يَرُدُّ النُّطفة في الإحليل بقوله: «والعامل في» يَوْمَ «-على هذين القولين- فعلٌ مضمر تقديره: اذكر يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ».ورجَّح ابن جرير (٢٤/ ٣٠٠) المعنى الثالث من القول الثاني -مستندًا إلى السياق- فقال: «إنّ الله على ردِّ الإنسان المخلوق من ماءٍ دافقٍ من بعد مماته حيًّا، كهيئته قبل مماته لقادر»، وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما قلتُ: هذا أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فكان في إتباعه قولَه: ﴿عَلَى رَجْعِهِ لَقادِرٌ﴾ أنباءً من أنباء القيامة، دلالة على أنّ السابقَ قبلَها أيضًا منه، ومنه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ﴾، يقول تعالى ذِكْره: إنه على إحيائه بعد مماته لقادرٌ، يوم تبلى السرائر؛ فـ» اليومُ «من صفة» الرَّجْع «؛ لأنّ المعنى: إنه على رجْعه يوم تبلى السرائرُ لقادرٌ».

وكذا رجَّحه ابن عطية (٨/ ٥٨٦)، قائلًا: «وهو أظهر الأقوال وأبْيَنُها»، ونقل ابن عطية (٨/ ٥٨٦ بتصرف) ثلاثة أقوال في العامل في «يَوْمَ» بناءً على هذا المعنى: «الأول: العامل» ناصِرٍ «من قوله تعالى: ﴿ولا ناصِرٍ﴾، والثاني: العامل» الرَّجْعُ «من قوله تعالى: ﴿عَلى رَجْعِهِ﴾، قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإنْ حال خبران بينه وبين معموله، والثالث: العامل

يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9).

فعل مضمر تقديره:» إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ يُرجعه يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ «»، ثم علَّق عليها بقوله: «وكلّ هذه الفرق فرَّتْ من أنْ يكون العامل» قادرٌ «؛ لأنّ ذلك يَظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تُؤُمِّلَ المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أنْ يكون العامل» قادرٌ «، وذلك أنه عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ، أي: على الإطلاق أولًا وآخرًا وفي كل وقت، ثم ذكر تعالى وخصّص من الأوقات الوقت الأهم على الكفار؛ لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب، فتجتمع النفوس إلى حذره والخوف منه».

وكذا رجَّحه ابن القيم (٣/ ٢٨٧، ٢٨٨ بتصرف) وانتقد القول بأن المراد رد الماء في الإحليل، أو الصُّلب، أو ردّ الإنسان من الكِبَر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصِّبا إلى النُّطفة -مستندًا إلى دلالة النظائر والعقل واللغة- فقال: «وهو الصواب لوجوه: أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

الثاني: أنّ ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

الثالث: أنه لم يأتِ لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

الرابع: أنه قيّد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: أنّ الله قادر على رجْعه إليه حيًّا في ذلك اليوم.

الخامس: أنّ الضمير في ﴿رَجْعِهِ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿فَما لَهُ مِن قُوَّةٍ ولا ناصِرٍ﴾ وهذا للإنسان قطعًا لا للماء.

السادس: أنه لا ذِكْر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه، فلو قال قائل: على رجْعه إلى الفرج الذي صُبّ فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول، ولم يكن أولى منه.

السابع: أنّ ردّ الماء إلى الإحليل أو الصُّلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جَرتْ به القدرة، وإنْ كان مقدورًا للرّبّ تعالى، ولكن هو لم يُجرِه ولم تَجرِ به العادة، ولا هو مما تكلّم الناس فيه نفيًا أو إثباتًا، ومثل هذا لا يقرّره الرّبّ ولا يستدل عليه وينبّه على منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بدّ، إمّا قد وقع ووُجد أو سيقع.

الثامن: أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خُلِق منه ليردّه نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على ردّ الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتى يدعوه إلى النظر فيما خُلِق منه، ليستقبح منه صحة إمكان ردّ الماء.

التاسع: أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خَلْقه وردّ الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتى يجعل أحدهما دليلًا على إمكان الآخر بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحَسُن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

العاشر: أنه سبحانه نبّه بقوله: ﴿إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمّا عَلَيْها حافِظٌ﴾ على أنه قد وكّل عليه مَن يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء، ثم نبّه بقوله: ﴿إنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ﴾ على بعْثه لجزائه على العمل الذي حُفظ وأُحصي عليه، فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه، ونهايته الجزاء عليه، ونبّه على هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلى السَّرائِرُ﴾ أي: تُختبر».

أي: يومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، فيَتبَيَّنُ ما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ على ما يَستَحِقُّونَه مِن ثَوابٍ وعِقابٍ.

كما قال تعالى: هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ [يونس: 30].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ [العاديات: 9–10].

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10).

أي: فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ له يَنصُرُه ويُنقِذُه.

كما قال تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 24 – 26].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [الانفطار: 19].

سورةُ الطَّارِقِ

الآيات (11–17)

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)

غريب الكلمات:

الرَّجْعِ: أي: المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ كُلَّ عامٍ ويتكَرَّرُ، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ.

الصَّدْعِ: أي: النَّباتِ؛ لأنَّ الأرضَ تتصَدَّعُ -أي: تَنْشَقُّ- عنه، والصَّدعُ في اللُّغةِ: الشَّقُّ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفِراجِ شَيءٍ.

رُوَيْدًا: أي: قَليلًا، والرَّودُ: التَّرَدُّدُ في طَلَبِ الشَّيءِ برِفقٍ.

تفسير الآيات:

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11).

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ.[41]

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12).

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ ذاتِ النَّباتِ.

إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13).

أي: إنَّ القُرآنَ قَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ.

وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14).

أي: وليس القُرآنُ باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15).

---

(41) في معنى «الرجع» قولين: الأول: المطر.

الثاني: رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٨٧) أنّ «الصدع»: «النبات؛ لأن الأرض تتصدّع عنه».

ثم علّق عليه بقوله: «وهذا قول يناسب قول مَن قال: إنّ الرجع: هو المطر».

ثم نقل عن مجاهد أنّ الصدع: «ما في الأرض مِن شعاب، ولصاب، وخندق، وتشقّق بحرث وغيره، وفيها أمور فيها معتبر».

ثم علّق عليه بقوله: «وهذا قول يناسب القول الثاني في الرجع».

أي: إنَّ الكافِرينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، ويُؤَيِّدوا الباطِلَ.

وَأَكِيدُ كَيْدًا (16).

أي: وأنا أَكيدُ بِهم كَيدًا عَظيمًا -جزاءَ كَيدِهم-، بإمْهالِهم واسْـتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، وأُظهِرَ الحَقَّ عليه ولو بعْدَ حِينٍ.

كما قال تعالى: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ [الطور: 42].

وقال سُبحانَه: فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [القلم: 44-45].

فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17).

أي: فأَمْهِلْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم؛ فإنَّه واقِعٌ بهم -لا مَحالةَ- في الوَقتِ الَّذي جعلَه اللهُ مَوعِدًا لهَلاكِهم!

كما قال تعالى: فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا [مريم: 84].

وقال سُبحانَه: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 24].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ [الأحقاف: 35].

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الأعلَى

سُورةُ الأعلَى

سورةُ الأعلَى

سُمِّيَت هذه السُّورةُ:

1- سورةَ الأَعْلى.[42]

2- سورةَ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى:

فعن جابرٍ رضِـيَ اللهُ عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَـلِّي مع النَّبيِّ - ﷺ -، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَـلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ - ﷺ - العِشاءَ، ثمَّ أتى قومَه فأمَّهم، فافتتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)) وفيه أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال لِمُعاذٍ رضيَ اللهُ عنه: ((اقرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)).[43]

---

(42) قال ابنُ عاشور: (وسمَّاها أكثرُ المُفَسِّرينَ وكُتَّابُ المصاحِفِ «سورةَ الأعلَى»؛ لوُقوعِ صفةِ الأعلَى فيها).

((تفسير ابن عاشور)) (271/30).

(43) أخرجه مسلم (465).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِـــي اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ النَّبيُّ – ﷺ –، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشَـيءٍ فَرَحَهم به، حتَّى رأيتُ الولائِدَ[44] والصِّـبيانَ يقولونَ: هذا رَسـولُ اللهِ – ﷺ –قد جاء، فما جاء رَسولُ اللهِ – ﷺ – حتَّى قرأتُ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى في سُوَرٍ مِثلِها)).[45]

فضائل السورة وخصائصها:

1– كان النَّبيُّ – ﷺ –يقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ – ﷺ –يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعةِ بـــ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ)).[46]

---

(44) الولائِد: جمعُ وليدةٍ، وهي الجاريةُ الصَّغيرةُ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (257/2)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (9/ 3843).
(45) أخرجه البخاري (4941).
(46) أخرجه مسلم (878).
ومن حِكَمِ قِراءةِ سورةِ الأعلى وسورةِ الغاشيةِ في صلاةِ الجُمُعةِ والعيدينِ أنَّ فيهما مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ ما يُناسِبُ قِراءَتَهما في تلكَ الصَّلواتِ الجامعةِ.
يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (333/3).

وعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)).(47)

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)).(48)

2- كان النَّبيُّ – ﷺ –يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوتْرِ.

فعن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ – ﷺ –يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأولى بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وفي الثَّانيةِ بـ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وفي الثَّالثةِ بـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)).(49)

---

(47) أخرجه أبو داودَ (1125) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (1422)، وأحمدُ (20150) صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (2808)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (53/2)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (480/1)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (1125)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (1125).

(48) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (1774) واللَّفظُ له، وأحمدُ (20217).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (82/5)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (644)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (372/33).

ووَثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (206/2)، والبوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (330/2)، وذكَر ثُبوتَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (378/4).

(49) أخرجه الترمذيُّ (462)، والنسائيُّ (1702) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (1172)، وأحمدُ (2720).

احتجَّ به ابنُ حزم في ((المحلى)) (51/3)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (1702)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (556/1)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (338/4).

سُورةُ الأعلى مَكِّيَّةٌ،[50] نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[51]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إبرازُ جانبٍ عظيمٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى الَّتي لا تُحصَى.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- استِفتاحُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى.

2- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

3- امتِنانُ اللهِ تعالى على نَبيِّه - ﷺ -، وتأييدُه وتَثبيتُه.

4- ذِكرُ المُنتَفِعينَ بالذِّكرى ومَن يُعرِضُ عنها ومَصيرُه.

5- ذِكرُ بَعضِ ما في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ.

---

(50) وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ.

قال ابنُ عطيَّة: (وذلك ضَعيفٌ، وإنَّما دعا إليه قَولُ مَن قال: إنَّ ذِكرَ صَلاةِ العيدِ فيها).

((تفسير ابن عطية)) (5/439).

ويُنظر: ((تفسير جرير)) (24/309)، ((الوسيط)) للواحدي (4/468)، ((تفسير الزمخشري)) (737).

(51) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (4/431).

سورةُ الأعلَى

الآيات (1-8)

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8)

غريب الكلمات:

غُثَاءً: أي: يابِسًا هَشيمًا جافًّا، والغُثاءُ: ما تحطَّمَ مِن يَبْسِ البَقلِ يأتي به السَّيلُ فيَقذِفُه على جانِبِ الوادي، وأصلُ (غثي): يدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنِيٍّ.

أَحْوَى: أي: أَسْوَدَ بَعْدَ الخُضرةِ؛ وذلك أنَّ الرَّطْبَ إذا جَفَّ يَبِسَ واسْوَدَّ، وأصلُ (حوي): يدُلُّ على جَمعٍ.

تفسير الآيات:

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1).

أي: نَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، وهو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ لكُلِّ شَيءٍ، المتَّصِفُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ؛ واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى.[52]

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه كان إذا قَرأ...: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: سُبْحانَ ربِّيَ الأعلَى).[53]

---

(52) اختُلف في معنى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى﴾ على قولين: الأول: صلِّ بأمر ربّك.

الثاني: نزّه اسم ربّك الأعلى.

وزاد ابنُ جرير (٢٤/ ٣٠٩ - ٣١١) أقوالًا أخرى: الثالث: عظِّم ربَّك الأعلى.

الرابع: نزِّه اسم ربّك الأعلى أن تُسمِّيَ به شيئًا سواه.

الخامس: نزِّه الله عما يقول فيه المشركون.

السادس: نزِّه تسميتك -يا محمد- ربَّك الأعلى، وذِكْرَك إيّاه، أن تَذْكُره إلا وأنت له خاشعٌ متذلِّلٌ؛ قالوا: وإنما عني بالاسم: التسمية، ولكن وُضِع الاسم مكان المصدر.

السابع: صلِّ بِذِكْر ربّك، يا محمد، يعني بذلك: صلِّ وأنت له ذاكر، ومنه وجلٌ خائفٌ.

ثم رجَّح (٢٤/ ٣١١) -مستندًا إلى السنة، وأقوال السلف- أنّ المعنى «نزِّه اسم ربك الأعلى لما ذكرتُ مِن الأخبار عن رسول الله - ﷺ - وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرؤوا ذلك قالوا: سبحان ربيَ الأعلى، فبيّنٌ بذلك أنّ معناه كان عندهم: عظِّم اسم ربِّك، ونزِّهْه».

(53) أخرجه عبد الرَّزَّاق (4051) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (2100).

صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (2/48)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: 105).

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2).

أي: الَّذي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ هَيئةٍ مُناسِبةٍ له.

كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [الانفطار: 7].

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3).

أي: والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ في ذَواتِها وصِفاتِها وأحوالِها، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، وألهَمَه استِعمالَ قوَّتِه وأعضائِه وفِكْرِه في ذلك.(54)

---

(54) اختُلف في معنى: ﴿فَهَدَى﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والبهائم للمراتع.

الثاني: جعل لكلّ دابة ما يُصلِحها وهداها إليه.

الثالث: قدَّر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج.

الرابع: هدى الذَّكر لإتيان الأنثى.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٩٠) القول الأول، والرابع، وزاد عليهما قولين آخرين: أحدهما: عن الفراء أنّ المعنى: «هدى وأضلَّ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى».

والآخر: «هدى المولود عند وضعه إلى مصِّ الثدي».

ثم علَّق على هذه الأقوال بقوله: «وهذه الأقوال مثالات».

ووافقه ابنُ تيمية (٦/ ٥٣٩).

ووجَّه ابنُ القيم (٣/ ٢٩٢) القول الأول –وهو قول مجاهد–، والقول الرابع بقوله: «وما ذَكر مجاهد فهو تمثيل منه، لا تفسير مطابق للآية، فإنّ الآية شاملة لهداية الحيوان كلّه؛ ناطقه وبهيمه، طيره ودوابّه، فصيحه وأعجمه.

وكذلك قول مَن قال: إنه هداية الذَّكر لإتيان الأنثى.

تمثيل أيضًا، وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله، وكذلك قول مَن قال: هداه للمرعى.

فإنّ ذلك من الهداية؛ فإنّ الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أُمّه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبتْ، والهداية إلى قصْد ما ينفعه من المرعى دون ما يضرّه منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي

كما قال الله تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا [النحل: 78].

وقال سُبحانَه: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [طه: 50].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان: 2].

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4).

أي: والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ الأخضَرَ.

يعجز عنها الإنسان، كهداية النّحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عوْدها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٢) العموم، وذلك: «أنّ الله عمَّ بقوله: ﴿فَهَدى﴾ الخبر عن هدايته خَلْقَه، ولم يَخْصُصْ من ذلك معنًى دون معنًى، وقد هداهم لسبيل الخير والشر، وهدى الذكور لِمَأْتى الإناث، فالخبر على عمومه، حتى يأتي خبرٌ تقوم به الحجة دالٌّ على خصوصه».

وكذا رجحه ابنُ عطية قائلًا: «والعموم في الآية أصوب في كلّ تقدير وفي كلّ هداية».

ونحوه قال ابنُ القيم (٣/ ٢٩٢).

وأشار ابنُ تيمية (٦/ ٥٣٩) إلى ضعف قول الفرّاء.

وانتقده ابنُ القيم أيضًا -مستندًا إلى النظائر، ودلالة العقل- قائلًا: «وأضعف الأقوال فيها قول الفراء: إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته، وهو نظير قوله: ﴿رَبُّنا الَّذِي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى﴾ [طه: ٥٠]، فإعطاء الخَلْق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه».

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5).

أي: فجعَلَ اللهُ ذلك المَرعى يابِسًا، وجعَلَ لَونَه قَريبًا مِنَ السَّوادِ بَعْدَ أن كان مُخضَرًّا ورَطْبًا.(55)

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6).

أي: سنُلْهِمُك –يا محمَّدُ– قِراءةَ القُرآنِ رَغْمَ كونِك أُمِّيًّا لا تَقرَأُ ولا تَكتُبُ، وتحفَظُه في صَدْرِك، فلا تَنْساه.(56)

---

(55) نقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٤) في معنى الآية عن «بعض أهل العلم بكلام العرب أنّ ذلك من المؤخَّر الذي معناه التقديم، وأنّ معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غثاءً بعد ذلك...».

ثم انتقده –مستندًا إلى مخالفة أقوال السلف– قائلًا: «وهذا القول –وإن كان غير مدفوعٍ أن يكون ما اشتدتْ خُضرته من النبات، قد تُسمّيه العرب أسود– غيرُ صوابٍ عندي؛ لخلافه تأويل أهل التأويل في أنّ الحرف إنما يُحتال لمعناه المُخرَج بالتقديم والتأخير، إذا لم يكن له وجهٌ مفهومٌ إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره، فأما وله في موضعه وجهٌ صحيحٌ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير».

(56) اختُلف في معنى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إِلّا ما شاءَ اللَّهُ﴾ على أقوال: الأول: إخبارٌ من الله نبيَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: سنُقرِئُك فلا تنسى إلا ما شئتُ أنا فأُنسيك.

الثاني: سنعلِّمك القرآن، ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبدًا، كما قال –جلَّ ثناؤه–: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ﴾ الآية [القيامة: ١٦ – ١٧]، والاستثناء في هذا الموضع على النسيان، والمعنى: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه ولا تَذْكُره، وذلك هو ما نسخه الله من القرآن، فرَفَع حُكْمَه وتلاوتَه.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٥٩٢) القول الأول بقوله: على نحو قوله – ﷺ –: «إني لأنسى، وأُنَسّى لأَسُنَّ».

ووجَّه (٨/ ٥٩١) القول الثاني بقوله: «وفي هذا التأويل آية للنبي – ﷺ – في أنه أُمِّيٌّ، وحفظ الله تعالى عليه الوحي، وأمَّنه من نسيانه».

ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٦ بتصرف) قولين آخرين: أحدهما: أنّ «معنى النسيان في هذا الموضع: التَّرْك، وأنّ معنى الكلام: سنقرئك، يا محمد، فلا تَتْرُكُ العمل بشيءٍ منه، إلا ما شاء الله أن تَتْرُك العمل به، مما ننسَخُه».

والآخر: أنّ «بعض أهل العربية كان يقول في ذلك: لم يشأ اللهُ أن تَنسى شيئًا، وهو كقوله: ﴿خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ إِلّا ما شاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٨] ولا يشاء.

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7).

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

أي: إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ –يا محمَّدُ– وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكْمتُه البالِغةُ.

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ العَلانيَةَ والسِّرَّ.

كما قال تعالى: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

قال: وأنتَ قائلٌ في الكلام: لأُعطينَّك كلّ ما سألتَ إلا ما شئتُ، وإلا أنْ أشاءَ أنْ أمنعَك.

والنِّيَّةُ أن لا تمنعه، ولا تشاءَ شيئًا.

قال: وعلى هذا مجاري الأيمان، يُستَثنى فيها، ونيَّة الحالف التَّمام».

ثم رجَّح القول الثاني مستندًا إلى الأظهر لغة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ذلك أظهرُ معانيه».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٥٩١) عن آخرين: أنّ هذه الآية «وعدٌ بإقراء الشرع والسور، وأَمْرٌ بأن لا ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالى أنّ تَرْك النسيان ليس في قدرته، فهو نهيٌ عن إغفال التعاهد».

ونقل (٨/ ٥٩٢) عن بعض المتأولين أنّ معنى الاستثناء: «إلا ما شاءَ اللَّهُ أن يغلبك النسيان عليه، ثم يذكِّرك به بعد».

ثم وجَّهه بقوله: «ومن هذا قول النبي –عليه الصلاة والسلام– حين سمع قراءة عبّاد بن بشر: «؟ تعالى، لقد أذْكرني كذا وكذا آيةً في سورة كذا».

ثم علَّق بقوله:» ونسيان النبي – ﷺ – ممتنعٌ فيما أُمِر بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلَّغه ووُعِيَ عنه فالنسيان جائزٌ، على أن يتذكر بعد ذلك، أو على أن يسنّ، أو على النسخ".

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8).

أي: ونشرعُ لك –يا محمَّدُ– شرعًا سهلًا سَمحًا مستقيمًا عَدلًا، ونُسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في كلِّ أمرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

سورةُ الأعلَى

الآيات (9–15)

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي

يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (31)

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15)

غريب الكلمات:

يَصْلَى: أي: يَرِدُ ويدخلُ، يقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلًى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّار.

أَفْلَحَ: أي: فاز بالمطلوبِ، ونجا مِن المرهوبِ، وأصـــلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصـــاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاء.

تَزَكَّى: أي: تَطَهَّر مِن الكُفرِ ومَعاصـــي اللهِ، وعَمِل بما أمَرَه اللهُ به، وأصـــلُ (زكي): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ.

تفسير الآيات:

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9).

أي: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوت نَفعًا في التَّذكيرِ.

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45].

وقال سُبحانَه: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55].

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10).

أي: سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يخشى اللهَ، ويَخْشى عَذابَه.

كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ [هود: 103].

وقال سُبحانَه: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ [غافر: 13].

وقال اللهُ -عزَّ وجَلَّ- عن فِرعَونَ: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات: 25-26].

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11).

أي: ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكْرى، ولا يَنتَفِعُ بها.

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12).

أي: الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، فيُقاسي شِدَّةَ حَرِّها وآلامِها.(57)

كما قال تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى [الليل: 14-15].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِـــيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَــبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جهنَّمَ! قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رســولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّــلَت عليها بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثْلُ حَرِّها)).(58)

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13).

أي: ثمَّ لا يَموتُ الكافِرُ في النَّارِ الكُبْرى؛ فيَســـتريحَ مِن عَذابِها، ولا يَحْيا حياةً نافِعةً وخالِصـــةً مِنَ الآلامِ!

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [طه: 74].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ [إبراهيم: 17].

---

(57) نقل ابنُ عطية (٨/ ٥٩٣) أقوالًا في معنى: ﴿النار الكبرى﴾، فقال: «قال الحســـن: ﴿النَّارَ الكُبْرى﴾: نار الآخرة، والصُّغرى: نار الدنيا.
وقال بعض المفسرين: إنّ جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل، ففيها شيء أكبر من شيء.
وقال الفراء: الكُبْرى هي السُّفلى مِن أطباق النار».

(58) رواه البخاريُّ (3265)، ومسلمٌ (2843) واللَّفظُ له.

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله – ﷺ –: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهلُها فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يحْيَونَ)).[59]

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14).

أي: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي وسَيِّئِ الأخلاقِ، فآمَنَ وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي منها ذِكرُ اللهِ، والصَّلاةُ، والصَّدَقةُ.

كما قال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ [آل عمران: 164].

وقال سُبحانَه: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ [المؤمنون: 1 – 4].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [الشمس: 7 – 9].

---

(59) رواه مسلم (185).

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النَّبيُّ – ﷺ – يقولُ: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَولاها)).[60]

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15).

أي: وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى بقلبِه ولسانِه؛ فأورثَ له ذلك إقبالًا على الصَّلاةِ للهِ تعالى.[61]

(60) رواه مسلم (2722).

(61) اختُلف في معنى: ﴿وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ على قولين: الأول: وحَّد الله.

الثاني: نقله ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢١) عن آخرين أنّ المعنى: «وذكر الله، ودعاه، ورغب إليه».

ثم جمع بين القولين فقال: «أن يقال: وذكر الله فوحّده، ودعاه ورغب إليه؛ لأنّ كل ذلك مَن ذكر الله، ولم يَخْصُص الله تعالى من ذِكْره نوعًا دون نوعٍ».

واختُلف في معنى: ﴿فَصَلَّى﴾ على قولين: الأول: فصَلّى الصلوات الخمس.

الثاني: أنها صلاة العيد يوم الفطر.

ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢١) عن آخرين أنّ «الصلاة هاهنا: الدعاء».

ثم رجَّح «أن يقال: عُنِيَ بقوله: ﴿فَصَلَّى﴾: الصلوات، وذكر الله فيها بالتحميد والتمجيد والدعاء».

مستندًا لقول ابن عباس.

سورةُ الأعلَى

الآيات (16–19)

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى

(18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)

غريب الكلمات:

تُؤْثِرُونَ: أي: تُقَدِّمونَ وتَختارونَ، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16).

أي: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّـلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، فتَنشغِلونَ بأُمورِ دُنياكم عن أمورِ دِينِكم.

كما قال تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14].

وقال سُبحانَه: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [التكاثر: 1].

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17).

أي: وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَـلُ وأدومُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها القليلةِ الفانيةِ؛ فنَعيمُ الجنَّةِ كامِلٌ لا نَقْصَ فيه، وأبَدِيٌّ لا يَنتهي.

كما قال تعالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ [القصص: 60].

وقال جَلَّ شأنُه: إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [غافر: 39].

وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحدُكم إصْبَعَه هذه –وأشار بالسَّبَّابةِ– في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!)).[62]

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18).

أي: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى مذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ.[63]

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19).

أي: وتلك الصُّحُفُ هي المَنَزَّلةُ على إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

---

(62) رواه مسلم (2858).

(63) اختُلف في المشار إليه بـ ﴿هذا﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: أُشير به إلى الآيات التي في ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى﴾.

الثاني: إلى قصة هذه السورة.

الثالث: إنّ هذا الذي قضى الله في هذه السورة لفي الصُّحف الأولى.

الرابع: أن قوله: ﴿والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى﴾ في الصُّحف الأولى.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٥) –مستندًا إلى الأظهر لغة– أنّ «قوله: ﴿قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى﴾، لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم خليل الرحمن، وصحف موسى بن عمران».

وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ﴿هذا﴾ إشارةٌ إلى حاضرٍ، فلأن يكون إشارة إلى ما قَرُب منها أولى من أن يكون إشارة إلى غيره».

ونحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٥٩٤).

وكذا ابنُ كثير (١٤/ ٣٢٨) فقال: «وهذا اختيار حسن قوي».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الغاشِيةِ

سُورةُ الغاشِيةِ

سورةُ الغاشِيةِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الغاشِيةِ).(64)

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ؛ فعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)).(65)

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـــ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)).(66)

---

(64) سُمِّيَت سورةَ الغاشيةِ لوُقوعِ لفظِ الغاشيةِ في أوَّلِها.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (516/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (293/30).
(65) أخرجه أبو داودَ (1125) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (1422)، وأحمدُ (20150).
صَححه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (2808)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (53/2)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (480/1)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (1125)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (1125).
(66) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (1774) واللَّفظُ له، وأحمدُ (20217).
صححه ابنُ حزم في ((المحلى)) (82/5)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (644)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (372/33).

فضائل السورة وخصائصها:

كان النَّبِيُّ – ﷺ – يقرَأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ – ﷺ – يقرَأُ في العِيدَينِ، وفي الجُمُعةِ بـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ)).[67]

وتقدَّمَ حديثًا سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

سورةُ الغاشيةِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[68]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ أحوالِ الكافِرينَ والمؤمنينَ يومَ القيامةِ.

---

(67) أخرجه مسلم (878).

(68) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (5/443)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/434)، ((تفسير القرطبي)) (20/25)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (3/186).

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- ذِكرُ جزاءِ الكافِرينَ والمُؤمنينَ يومَ القيامةِ.

2- ذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِه.

3- أمْرُ النَّبيِّ - ﷺ - بالتَّذكيرِ، وتهديدُ المُشركِينَ المُعرِضينَ بالعَذابِ.

4- تقريرُ وُقوعِ البَعْثِ والحِسابِ.

سورةُ الغاشِيةِ

الآيات (1–7)

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَى نَارًا
حَامِيَةً (4) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي
مِنْ جُوعٍ (7)

غريب الكلمات:

الْغَاشِيَةِ: هي القيامةُ تَغْشى النَّاسَ بالأهوالِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

نَاصِبَةٌ: تَعمَلُ ما تتعَبُ به، ومعنى النَّصَبِ: الدُّؤوبُ في العَمَلِ بالتَّعَبِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ.

تَصْلَى: أي: تدخُلُ النَّارَ وتذُوقُ حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ.

آنِيَةٍ: أي: بالِغةِ الحرارةِ قد انتهَى غَلَيانُها، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ.

ضَرِيعٍ: أي: نبتٍ ذي شَوكٍ هو أخبَثُ الطَّعامِ وأبشَعُه.

تفسير الآيات:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1).

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟[69]

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2).

أي: تكونُ وُجوهٌ يومَ القيامةِ ذَليلةً.

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3).

أي: يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُجهِدةً مُرهِقةً.[70]

---

(69) اختُلف في معنى: ﴿الغاشية﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: أنها القيامة تغشى الناس بالأهوال.

الثاني: أنها النار تغشى وجوه الكفرة.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٥٩٦) على القول الأول بقوله: «يؤيده قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعها: ذُلُّها وتغيُّرُها بالعذاب».

وعلَّق على القول الثاني بقوله: «وقد قال تعالى: ﴿وتَغْشى وُجُوهَهُمُ النّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿ومِن فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، فهي تغشى سكانها».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٧) العموم، فقال: «إن الله قال لنبيّه: ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ الغاشِيَةِ﴾، ولم يُخْبِرنا أنه عَنى غاشية القيامة، ولا أنه عَنى غاشية النار، وكلتاهما غاشيةٌ، هذه تغشى الناس بالبلابل والأهوال والكروب، وهذه تغشى الكفار باللفْح في الوجوه والشُّواظ والنُّحاس، فلا قول أصحُّ في ذلك مِن أن يقال كما قال -جلَّ ثناؤه-، ويُعَمَّ الخبرُ بذلك كما عمَّه».

(70) اختُلف في معنى: ﴿عامِلَةٌ ناصِبَةٌ﴾ على أقوال: الأول: عاملة في النار ناصبة فيها.

الثاني: عاملة في الدنيا ناصبة فيها، والآية في القِسّيسين، وعباد الأوثان، وكلّ مَن اجتهد في كُفر.

الثالث: عاملة في الدنيا ناصبة يوم القيامة.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٥٩٦) القول الثالث بقوله: «فالعمل -على هذا- هو مساعي الدنيا».

ورجَّح ابنُ تيمية (٧/ ٥) -مستندًا إلى اللغة، والدلالة العقلية، والنظائر- القول الأول، فقال: «هذا هو الحق لوجوه: أحدها: أنه على هذا التقدير يتعلق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة صالية، وعلى الأولى لا يتعلق إلا بقوله: ﴿تصلى﴾، ويكون قوله: ﴿خاشعة﴾ صفة للوجوه، قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلّق بصفة أخرى متأخرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذٍ تصلى نارًا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل؛ فالأصل إقرار الكلام على نظْمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، ثم إنما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أما مع اللبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلوم أنه ليس هنا قرينة تدل على التقديم والتأخير، بل القرينة تدل على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمْر المخاطب بفهمه تكليف لما لا يطاق.

الوجه الثاني: أنّ الله قد ذكر وجوه الأشقياء ووجوه السعداء في السورة، فقال بعد ذلك: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ لِسَعْيِها راضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ﴾، ومعلوم أنه إنما وصفها بالنعمة يوم القيامة لا في الدنيا؛ إذ هذا ليس بمدح، فالواجب تشابه الكلام وتناظر القسمين، لا اختلافهما، وحينئذ فيكون الأشقياء وُصفتْ وجوههم بحالها في الآخرة.

الثالث: أنّ نظير هذا التقسيم قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ – ٢٥]، وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ووُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ – ٤٢]، وهذا كله وصفٌ للوجوه لحالها في الآخرة لا في الدنيا.

الرابع: أنّ وصف الوجوه بالأعمال ليس في القرآن، وإنما في القرآن ذِكْر العلامة، كقوله: ﴿سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿ولَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، وقوله: ﴿وإذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا المُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ [الحج: ٧٢]، وذلك لأنّ العمل والنَّصَب ليس قائمًا بالوجوه فقط؛ بخلاف السيما والعلامة.

الخامس: أنّ قوله: ﴿خاشِعَةٌ عامِلَةٌ ناصِبَةٌ﴾ لو جُعل صفة لهم في الدنيا لم يكن في هذا اللفظ ذم، فإنّ هذا إلى المدح أقرب، وغايته أنه وصفٌ مشترك بين عُبّاد المؤمنين وعُبّاد الكفار، والذم لا يكون بالوصف المشترك، ولو أُريد المختص لقيل: خاشعة للأوثان -مثلًا-، عاملة لغير الله، ناصبة في طاعة الشيطان.

وليس في الكلام ما يقتضي كون هذا الوصف مختصًّا بالكفار، ولا كونه مذمومًا، وليس في القرآن ذمٌّ لهذا الوصف مطلقًا، ولا وعيد عليه، فحمْله على هذا المعنى خروج عن الخطاب المعروف في القرآن.

السادس: أنّ هذا الوصف مختص ببعض الكفار، ولا موجب للتخصيص، فإنّ الذين لا يتعبّدون من الكفار أكثر، وعقوبة فُسّاقهم في دينهم أشد في الدنيا والآخرة، فإنّ مَن كفَّ منهم عن المحرمات المتفق عليها، وأدّى الواجبات المتفق عليها لم تكن عقوبته كعقوبة الذين يدعون مع الله إلهًا آخر، ويقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ويَزْنُون.

فإذا كان الكفر والعذاب على هذا التقدير في القسم المتروك أكثر وأكبر؛ كان هذا التخصيص عكس الواجب.

السابع: أنّ هذا الخطاب فيه تنفير عن العبادة والتَّنسك ابتداء، ثم إذا قُيِّد ذلك بعبادة الكفار والمبتدعة -وليس في الخطاب تقييد- كان هذا سعيًا في إصلاح الخطاب بما لم يُذكر فيه».

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (4).

أي: يَدخُلونَ نارًا مُتوَقِّدةً شَديدةَ الحرارةِ.

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5).

أي: يُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ.

كما قال تعالى: هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ [الرحمن: 43–44].

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6).

أي: ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ.(71)

---

(71) قال ابنُ عطية (٨/ ٥٩٨ – ٥٩٩) في معنى الآية: «وقيل: الضريع: العِشْرِقُ.
وقال النبي – ﷺ –: «الضريع شوك في النار».
وقال بعض اللغويين: الضريع يَبِسُ العَرْفَج إذا تحطّم.
وقال آخرون: هو رَطْبُ العَرْفج.
وقال الزَّجّاج: هو نَبْتٌ كالعَوْسج.
وقال بعض المفسرين: الضّريع نبتٌ في البحر أخضر منتن مُجَوَّف مستطيل له نَوْر فيه كبير...
وكلّ مَن ذَكر شيئًا مما قدمناه فإنما يعني أنّ ذلك من نار ولا بُدّ، وكلّ ما في النار فهو نار.
وقال قوم: ضَرِيع وادٍ في جهنم.
وقال جماعة من المتأولين: الضّريعُ طعام أهل النار.
ولم يُرِد أن يخصص شيئًا مما ذُكِر، قال بعض اللغويين: وهذا مما لا تعرفه العرب.
وقيل: الضّريع: الجلدة التي على العظم تحت اللحم».

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7).

أي: لا يَعودُ هذا الضَّريعُ على آكِلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ أجسادَهم، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ؛ فليس مِن وَرائِه سِوى الضَّرَرِ المحْضِ!

ثم علَّق بقوله: «ولا أعرف مَن تأوَّل الآية بهذا، وأهل هذه الأقاويل يقولون: الزّقوم لطائفة، والضّريع لطائفة، والغِسْلين لطائفة».

سورةُ الغاشِيةِ

الآيات (8–16)

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

غريب الكلمات:

لِسَعْيِهَا: أي: لِعَمَلِها الَّذي عَمِلَتْ في الدُّنْيا مِن طاعةِ رَبِّها، والسَّعْيُ: المَشيُ السَّريعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودةِ.

لَاغِيَةً: أي: لَغوًا أو باطِلًا مِنَ القَولِ، واللَّغْوُ مِنَ الكَلامِ: ما لا يُعتَدُّ به، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به.

وَأَكْوَابٌ: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو إناءٌ مستديرُ الرَّأسِ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ.

وَنَمَارِقُ: أي: وَسائِدُ ومَرافِقُ، واحدتُها: نُمْرُقةٌ ونِمْرِقةٌ.

وَزَرَابِيُّ: أي: بُسُطٌ فاخِرةٌ، واحدتُها: زَرْبِيَّةٌ.

مَبْثُوثَةٌ: أي: مَبسوطةٌ مُتفَرِّقةٌ في المجالِسِ، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه.

تفسير الآيات:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8).

أي: يَظهَرُ على وُجوهِ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ أثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، والرَّاحةِ والرَّفاهِيَةِ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [المطففين: 22 - 24].

لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9).

أي: أصحابُ تلك الوُجوهِ راضُونَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10).

أي: في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، وفي مَوضِعٍ عالٍ.

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11).

أي: لا يَسمَعونَ فيها أيَّ كَلِمةٍ لا فائِدةَ مِن ورائِها.

كما قال تعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا [مريم: 62].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: لَا يَسْـمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا سَـلَامًا [الواقعة: 25-26].

وقال عزَّ وجلَّ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا [النبأ: 35].

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12).

أي: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جاريةٌ بماءٍ أو بغَيرِه مِنَ الأشرِبةِ، مِن غيرِ أُخدودٍ.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [الحجر: 45].

وقال سُبحانَه: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى [محمد: 15].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ [الواقعة: 31].

فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13).

أي: فيها أَسِرَّةٌ عاليةٌ مُرتَفِعةٌ، يَجلِسونَ عليها أو يَضطَجِعونَ.

كما قال الله تعالى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الحجر: 47].

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14).

أي: فيها أكْوابٌ، مَوضــوعةٌ بيْنَ أيديهم، كلَّما أرادوها وجَدوها حاضــرةً عندَهم، قد أُعِدَّتْ لهم بأشرِبَتِها.

كما قال تعالى: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِــحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الزخرف: 70-71].

وقال سُــبحانَه وتعالى: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [الواقعة: 17-18].

وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15).

أي: وفيها وَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بعضُها بجانبِ بَعضٍ، يَستَنِدونَ إليها.

وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16).

أي: وفيها فُرُشٌ فاخِرةٌ جَميلةٌ كَثيرةٌ مُنتَشِرةٌ.

سورةُ الغاشِيةِ

الآيات (17–20)

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)

غريب الكلمات:

نُصِبَتْ: أي: جُعِلَت مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استِواءٍ.

سُطِحَتْ: أي بُسِطَت ومُدَّت، وأصلُ (سطح): يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه.

تفسير الآيات:

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17).

أي: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرين في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ؟[72]

كما قال تعالى: وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ [النحل: 5 – 7].

وقال سُــبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ [يس: 71 – 73].

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟

كما قال تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا [الرعد: 2].

وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6].

---

(72) نقل ابنُ عطية (٨/ ٦٠١) عن المبرد قوله: «الإبل هنا: السحاب؛ لأنّ العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالًا كالإبل، وتُزْجى كما تُزْجى الإبل، وهي في هيئتها أحيانًا تشبه الإبل والنعام».

واستشهد ببيت من الشعر:

كأن السحاب دوين السماء نعام تعلق بالأرجل.

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ؟

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20).

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ؟

كما قال تعالى: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

سورةُ الغاشِيةِ

الآيات (21–26)

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ
اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

غريب الكلمات:

بِمُصَـيْطِرٍ: أي: بمُسَـلَّطٍ قاهِرٍ، والمُصَـيْطِرُ: المُجْبِرُ المُكْرِهُ. وقيل: أي: قائمٍ وحافظٍ، والمُسَـيْطِرُ هو المُتَعهِّدُ للشَّيءِ المُتَسلِّطُ عليه، يُقالُ: صَيْطَرَ وسَيْطَرَ بالصَّادِ والسِّينِ.

تَوَلَّى: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَرَكِ القُربِ.

إِيَابَهُمْ: أي: رُجوعَهم بعدَ الموتِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ.

تفسير الآيات:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21).

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ –يا مُحَمَّدُ– بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم.

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45].

وقال عزَّ وجلَّ: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55].

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22).

أي: لم تُبعَثْ –يا مُحَمَّدُ– مُتسلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه.

كما قال تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة: 272].

وقال سُبحانَه: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ [الزمر: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ [الشورى: 48].

وقال تبارك وتعالى: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ [ق: 45].

النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ غيرُ مَنسوخةٍ.[73]

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهي قَولُه تعالى: فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ... [التوبة: 5].[74]

إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23).

أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى.[75]

---

(73) وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثير، ورجَّحه محمد رشيد رضا، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (340/24)، ((تفسير ابن كثير)) (388/8)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (418/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (307/30).
وقال ابن الجوزي: (وقد قال بعضُ المفسِّرينَ في معناها: لَسْتَ عليهم بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهم على الإيمانِ. فعلى هذا لا نَسْخَ).
((نواسخ القرآن)) (625/2).
(74) وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وهبةُ الله بنُ سلامة، وابنُ حزم، والقرطبيُّ، وقد عزا الواحديُّ القولَ بالنَّسخِ إلى جميعِ المفَسِّرينَ.
يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (679/4)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: 197)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: 65)، ((البسيط)) للواحدي (476/23)، ((تفسير القرطبي)) (37/20).
(75) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٢) اختلافَ المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِلا مَن تَوَلّى وكَفَرَ﴾ على قولين: الأول: «أنّ الاستثناء متصل، والمعنى: إلا مَن تولى وكفر فأنت مُسيطِرٌ عليه».
ثم وجَّهه بقوله: «فالآية -على هذا- لا نسخ فيها».
الثاني: «أن الاستثناء منفصل، والمعنى: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾، وتمَّ الكلام، وهي آية موادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالى: ﴿إِلّا مَن تَوَلّى وكَفَر * فَيُعَذِّبُهُ﴾».
ثم رجَّحه مستندًا إلى أحوال النزول، فقال: «وهذا هو القول الصحيح؛ لأن السورة مكّيّة، والقتال إنما نزل بالمدينة».

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24).

أي: فيُعَذِّبه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه.

كما قال تعالى: وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 127].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [السجدة: 21].

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25).

أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم.

كما قال سبحانه وتعالى: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [المائدة: 105].

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26).

أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

قال تعالى: فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40].

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفَجْرِ

سورةُ الفَجْرِ

سورةُ الفَجْرِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفَجْرِ).[76]

سورةُ الفَجرِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرين.[77]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

1- تَثْبيتُ النَّبيِّ - ﷺ -.

2- إثباتُ اليومِ الآخِرِ، والحسابِ بالثَّوابِ والعِقابِ.

---

(76) وَجهُ التَّسميةِ: افتتاحُها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: وَالْفَجْرِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/518)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/311).

(77) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (4/437).

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٤) أنّ سورة الفجر «مكيّة عند جمهور المفسرين».

ونقل عن بعض العلماء -حكاية عن الداني-: أنها مدنية، ثم رجَّح قائلًا: «والأول أشهر، وأصحّ».

ولم يذكر مستندًا.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ بخمسةِ أشياءَ شريفةٍ.

2- تَذكيرُ المُشرِكينَ بما حَلَّ بالمكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم، كقَومِ عادٍ وثَمودَ وفِرعَونَ.

3- بيانُ أحوالِ الإنسانِ في حالِ غِناه وفي حالِ فَقْرِه، وأنَّ كَثرةَ النِّعَمِ ليست دليلًا على إكرامِ اللهِ للعَبْدِ، ولا التَّضييقُ دليلٌ على إهانتِه.

4- وَصفُ يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، وتأسُّفُ الإنسانِ يومَئذٍ على تفريطِه.

5- تبشيرُ أصحابِ النُّفوسِ المؤمِنةِ المطمَئِنَّة.

سورةُ الفَجْرِ

الآيات (1–14)

وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ
لِذِي حِجْرٍ (5) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا
فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ
طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13)
إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)

غريب الكلمات:

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ: الشَّفعُ: هو الزَّوجُ. والوَتْرُ والوِتْرُ: هو الفَردُ، تَقولُ: كان فَرْدًا فشَفَعْتُه، فالشَّفعُ في اللُّغةِ: اثنانِ، والوِتْرُ: واحدٌ، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ.

حِجْرٍ: أي: عَقْلٍ، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على المنعِ، وسُمِّيَ العَقلُ حِجرًا؛ لأنَّه يَمنَعُ الإنسانَ مِن تعاطي ما لا يليقُ به مِن الأفعالِ والأقوالِ، كما يُسَمَّى عَقلًا؛ لأنَّه يَعقِلُه عن القبائحِ.

الْعِمَادِ: أي: أعمدةِ بيوتِهم مِن الشَّعرِ، أو بنيانِهم، أو القُدودِ الطِّوالِ، على تشبيهِ قاماتِهم بالأعمِدةِ، وأصلُ (عمد): يدُلُّ على استقامةٍ في الشَّيءِ.

جَابُوا الصَّخْرَ: أي: قَطَعوا صَخرَ الجِبالِ، واتَّخَذوا فيها بُيوتًا نَحَتوها مِنَ الصَّخرِ، والجَوْبُ: القَطعُ، تقولُ: جُبتُ البِلادَ أَجوبُها: إذا قطَعْتَها، ومنه الجَوابُ؛ لأنَّه يَقطَعُ السُّؤالَ، وأصلُ (جوب): يدُلُّ على خَرقِ الشَّيءِ.

ذِي الْأَوْتَادِ: أي: صاحِبِ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلكَه، كما يُقَوِّي الوَتِدُ الشَّيءَ، والوَتِدُ: عُودٌ غليظٌ شيئًا، أسْفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ لِتُشَدَّ به أطْنابُ الخَيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ.

سَوْطَ عَذَابٍ: أي: نَصيبَ عذابٍ أو: شِدَّته؛ لأنَّ السَّوطَ كان عندَهم نهايةَ ما يُعَذَّبُ به، والسَّوطُ كَلِمةٌ تقولُها العَرَبُ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العذابِ، وأصلُ ذلك أنَّ السَّوطَ هو عذابُهم الَّذي يُعَذِّبونَ به، فجرى لكُلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندَهم غايةُ العذابِ، وأصلُ (سوط): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ الشَّيءَ.

لَبِالْمِرْصَادِ: أي: على طريقِ العِبادِ لا يَفوتُه أحدٌ منهم، يرصُدُ عمَلَ كُلِّ إنسانٍ؛ حتَّى يُجازيَه به، والمَرْصَدُ والمِرْصادُ: الطَّريقُ، أو: المِرْصادُ: الموضِعُ الَّذي يُرصَدُ النَّاسُ فيه، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على التَّهَيُّؤِ لِرِقْبةِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَالْفَجْرِ (1).

أي: أُقسِمُ بالفَجْرِ، وهو وقتُ ابتداءِ ظُهورِ النُّورِ في الأُفُقِ الشَّرقيِّ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ.(78)

وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2).

أي: وأُقسِمُ بلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ.(79)

---

(78) ذكر ابن القيم (٣/ ٢٩٦) أنّ قوله تعالى: ﴿والفَجْرِ﴾ «إنْ أريد به جنس الفجر كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمّن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمّن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿واللَّيْلِ إذا يَسْرِ﴾ المتضمّن لآخر الصلوات: وإنْ أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النَّحر وليلته التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رئي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها، وذلك الفجر فجر يوم النَّحر الذي هو أفضل الأيام عند الله...

وعلى هذا فقد تضمّن القَسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل – عليه السلام –: ﴿قُلْ إنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيايَ ومَماتِي لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقيل لخاتم الرسل – ﷺ –: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، بخلاف حال المشركين المُتكبّرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يُشركون به، ويستكبرون عن عبادته كحال مَن ذُكر في هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون».

(79) اختُلف في «الليالي العشر» ما هي؟ على أقوال: الأول: هي ليال عشر ذي الحِجّة.

الثاني: العشر الأُوَل من المُحرّم.

الثالث: العشر الأواخر من رمضان.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٤٨) –مستندًا إلى السنة، وإجماع أهل التأويل– القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق أبي نصر، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لإجماع الحجّة من أهل التأويل عليه، وأنّ عبد الله بن أبي زيادٍ القَطواني حدّثني قال: ثني زيد بن حباب، قال: أخبرني عيّاش بن عقبة، قال: ثني خير بن نُعيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر، أنّ رسول الله – ﷺ – قال: ﴿والفَجْرِ ولَيالٍ عَشْرٍ﴾، قال: «عَشرُ الأضحى»».

وكذا رجَّحه ابنُ كثير (١٤/ ٣٣٨).

وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3).

أي: وأُقسِمُ بالشَّفعِ، وأُقسِمُ بالوَتْرِ.[80]

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4).

وزاد ابنُ عطية (٨/ ٦٠٤، ٦٠٥) قولين آخرين نقلهما: الأول عن بعض الرواة: «هي العشر الأُوَل من رمضان»، والثاني عن مجاهد: «هي عَشرُ موسى - عليه السلام - التي أتمَّها الله تعالى له».

(80) اختُلف في معنى: «الشَّفع والوتر» على أقوال: الأول: الشَّفع: يوم النَّحر، والوتر: يوم عرفة.

الثاني: الشَّفع: اليومان بعد يوم النحر، والوتر: اليوم الثالث.

الثالث: الشَّفع: الخَلْق كلّه، والوتر: الله.

الرابع: الشَّفع والوتر: الخَلْق كلّه.

الخامس: الصلاة المكتوبة؛ منها الشَّفع، ومنها الوتر.

السادس: العدد؛ منه الشَّفع، ومنه الوتر.

السابع: الشَّفع الركعتان من المغرب، والوتر الركعة الثالثة.

الثامن: الشَّفع الأيام والليالي، والوتر يوم القيامة لأنه لا ليل بعده.

التاسع: الشَّفع آدم وحواء؟، والوتر الله - عز وجل -.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٥٥) العموم، فقال: «إنّ الله -تعالى ذِكْره- أقسم بالشَّفع والوتر، ولم يَخْصُص نوعًا من الشَّفع ولا من الوتر دون نوعٍ بخبرٍ ولا عقلٍ، فكلّ شفعٍ ووترٍ فهو مما أقسم به مما قال أهل التأويل إنه داخلٌ في قَسَمه هذا؛ لعموم قَسَمه بذلك».

وزاد ابنُ عطية (٨/ ٦٠٥ - ٦٠٦) أقوالًا أخرى نقلها عن آخرين، فقال: «وقيل: الشَّفع: الصفا والمروة، والوتر: البيت.

وقال الحسين بن الفضل: الشَّفع: أبواب الجنة لأنها ثمانية أبواب، والوتر: أبواب النار لأنها سبعة أبواب.

وقال مقاتل: الشفع: الأيام والليالي، والوتر: يوم القيامة؛ لأنه لا ليل بعده.

وقال أبو بكر الوَرّاق: الشَّفع: تضاد أوصاف المخلوقين كالعِزِّ والذُّل ونحوه، والوتر: اتحاد صفات الله تعالى، عِزٌّ محض وكرمٌ محض، ونحوه.

وقيل: الشَّفع: قِرانُ الحج والعمرة، والوتر: الإفراد بالحج...

وقال بعض المفسرين: الشَّفع: حواء، والوتر: آدم؟...

وقال بعض العلماء: الشَّفع: تنفُّلُ الليل مثنى مثنى، والوتر: الركعة الأخيرة المعروفة».

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه.[81]

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (5).

أي: هل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويرتَدِعَ؟ فإنَّ مَنْ كان كذلك عَلِمَ أنَّ ما أقسَمَ اللهُ به أمورٌ عَظيمةٌ فيها عجائِبُ ودلائِلُ على الحَقِّ، فيتفكَّرُ فيها، ويعتَبِرُ بها.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6).

أي: ألم تعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتقَم ربُّك مِن قَبيلةِ عادٍ؟!

كما قال تعالى: وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [الحاقة: 6 – 8].

(81) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٦) أنّ «سُرى الليل: ذهابه وانقراضه، هذا قول الجمهور».
ثم نقل عن ابن قُتيبة، والأخفش وغيرهما أنّ المعنى: «إذا يُسرى فيه».
ثم وجَّهه بقوله: «فيخرج هذا الكلام مخرج: ليل نائم، ونهار صائم».

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7).

أي: إرمَ ذاتِ الأعمدةِ.(82)

---

(82) اختُلف في معنى: ﴿إِرَمَ﴾ على أقوال: الأول: أنها اسم بلدة، واختُلف في تعيينها على قولين: أحدهما: الإسكندرية.

ثانيهما: دمشق.

الثاني: عُنِيَ بها: أُمّة.

الثالث: القديمة.

الرابع: أنها قبيلة من عاد.

الخامس: هو جَدُّ عادٍ.

السادس: الهالك.

وعلَّق ابنُ كثير (١٤/ ٣٤٣) على القول الرابع –وهو قول قتادة، والسُّدِّيّ– بقوله: «وهذا قول حسن جيد قوي».

وذكر ابنُ جرير (٢٤/ ٣٦٤) –مستندًا إلى اللغة– أنّ الصواب «أن يقال: إنّ إرَم إمّا اسم بلدةٍ كانت عاد تسكنها، فلذلك رُدَّتْ على عادَ على الإتباع لها، ولم تُجْرَ مِن أجل ذلك، وإمّا اسم قبيلة فلم تُجْرَ أيضًا كما لا تُجْرى أسماء القبائل كتميم وبكر وما أشبه ذلك إذا أرادوا به قبيلةً».

وانتقده ابنُ كثير (١٤/ ٣٤٥) –مستندًا إلى السياق– قائلًا: «وقول ابن جرير: يحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿إرم﴾ قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرف.

فيه نظر؛ لأنّ المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة، ولهذا قال بعده: ﴿وثَمُودَ الَّذِيْنَ جابُوا الصَّخْرَ بِالوادِ﴾، يعني: يقطعون الصخر بالوادي».

ورجَّح ابنُ جرير –مستندًا إلى القراءات– القول الرابع، وهو قول قتادة، فقال: «وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندي: أنها اسمُ قبيلةٍ من عاد، ولذلك جاءت القراءة بتَرْك إضافة عاد إليها، وتَرْكِ إجرائها، كما يقال: ألم تَر ما فعل ربّك بتميم نهشل.

فتُرِك نهشل –وهي قبيلةٌ– فتُرِك إجراؤها لذلك، وهي في موضع خفضٍ بالرَّد على تميمَ، ولو كانت» إرم «اسمَ بلدة أو اسمَ جدٍّ لعادٍ لجاءت القراءة بإضافة عادَ إليها، كما يقال: هذا عمرو زبيد، وحاتم طيئ، وأعشى هَمْدان، ولكنها اسم قبيلةٍ منها فيما أرى كما قال قتادة، والله أعلم، فلذلك أجمعت القرأة فيها على ترك الإضافة وترك الإجراء».

وانتقد ابنُ جرير (٢٤/ ٣٦٤) القول الثالث –وهو قول مجاهد– –مستندًا إلى اللغة– بأنه «قولٌ لا معنى له؛ لأنّ ذلك لو كان معناه لكان مخفوضًا بالتنوين، وفي تَرْك الإجراء الدليل على أنه ليس بنعتٍ ولا صفةٍ».

وانتقد ابنُ عطية (٨/ ٦٠٧) مَن عيَّن البلدة بالإسكندرية أو دمشق قائلًا: «وهذان القولان ضعيفان».

كما قال الله تعالى: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [الشعراء: 128–129].

ووافقه ابنُ كثير (١٤/ ٣٤٤) –مستندًا إلى السياق، والدلالة العقلية– فقال: «ومَن زعم أنّ المراد بقوله: ﴿إرم ذات العماد﴾ مدينة إمّا دمشق، كما رُوي عن سعيد بن المسيّب، وعكرمة، أو إسكندرية كما روي عن القُرَظيّ أو غيرهما، ففيه نظر، فإنه كيف يلتئم الكلام على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ العِمادِ﴾ إن جُعل ذلك بدلًا أو عطف بيان، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ.

ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المُسمّاة بعاد، وما أحلّ الله بهم من بأسه الذي لا يُردُّ، لا أنّ المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم».

اختُلف في معنى: ﴿ذاتِ العِمادِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: ذات الطُّول، وقالوا: كانوا طوال الأجسام.

الثاني: ذات العماد؛ لأنهم كانوا أهل خيام وأعمدة، ينتجعون الغيوث.

الثالث: لبناءٍ بناه بعضهم، فشيَّد عمده ورفع بناءه.

الرابع: ذات القوة والشدة.

ورجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٦٦ – ٣٦٧) القول الثاني، وهو قول مجاهد من طريق ابن أبي نجيح، وقول قتادة، ومحمد بن السّائِب الكلبي، وانتقد القول الثالث مستندًا إلى الأغلب من لغة العرب، فقال معلِّلًا: «لأنّ المعروف في كلام العرب من العماد: ما عُمِد به الخيام من الخشب، أو السواري التي يُحمَل عليها البناء، ولا يُعلَم بناءٌ كان لهم بالعماد بخبر صحيح، بل وجَّه بعض أهل التأويل قوله: ﴿ذاتِ العِمادِ﴾ إلى أنه عُنِيَ به طول أجسامهم، وبعضهم إلى أنه عُنِيَ به عمادُ خيامهم، فأمّا عماد البنيان فلا نعلم كبير أحدٍ من أهل التأويل وجَّهَه إليه، وتأويل القرآن إنما يوجَّه إلى الأعرف الأغلب الأشهر من معانيه –ما وُجِد إلى ذلك سبيلٌ– دون الأنكر».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٨) أنّ مَن «قال:» إرَمَ مدينة «قال: العماد أعمدة الحجارة التي بُنيتْ بها.

وقيل: القصور العالية والأبراج، يقال لها: عماد.

ومَن قال:» إرَمَ قبيلة «قال: العِمادِ إمّا أعمدة أبْنِيَتِهم، وإمّا أعمدة بيوتهم التي يرحلون بها؛ لأنهم كانوا أهل عمود ينتجعون البلاد.

قاله مقاتل وجماعة».

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8).

أي: الَّتي لم يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ.(83)

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9).

أي: ألَمْ تَرَ –يا محمَّدُ– كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثَمودَ الَّذين شَـقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَـنَعوا فيها بُيوتًا؟(84)

---

(83) اختُلف في المشار إليه بقوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلَادِ﴾ على قولين: الأول: أنّ الإشارة إلى عاد أو تلك القبيلة، والمعنى: لم يُخلق مثلها في الطُّول والقوة.

الثاني: الإشارة إلى المدينة، والمعنى: لم يُخلق مثل الأعمدة في البلاد، وقالوا: التي لم يُخلق مثلها من صفة ذات العماد، والهاء التي في ﴿مثلُها﴾ إنما هي من ذكر ﴿ذات العماد﴾.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٦٨) القول الأول، وانتقد القول الثاني –وهو قول ابن زيد– مستندًا إلى اللغة، والواقع، فقال: «وهذا قولٌ لا وجه له؛ لأنّ ﴿العِمادِ﴾ واحدٌ مذكر، و﴿التي﴾ للأنثى، ولا يوصف المذكر بالتي، ولو كان ذلك من صفة ﴿العِمادِ﴾ لقيل: الذي لم يُخلَق مثله في البلاد، وإن جُعِلت ﴿التي﴾ لإرمَ، وجُعِلت الهاء عائدةً في قوله: ﴿مِثْلُها﴾ عليها، وقيل: هي دمشــق أو الإســكندرية؛ فإنّ بلاد عادٍ هي التي وصــفها الله في كتابه، فقال: ﴿واذْكُرْ أخا عادٍ إذْ أنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، والأحقاف: هي جمع حِقْفٍ، وهو ما انعطف من الرّمل وانحنى، وليست الإسكندريةُ ولا دمشقُ من بلاد الرّمال، بل ذلك الشِّحْرُ من بلاد حَضرمَوت، وما والاها».

ووافقه ابنُ كثير (١٤/ ٣٤٣)، فقال: «وهذا القول هو الصــواب، وقول ابن زيد ومَن ذهب مذهبه ضــعيف؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال: التي لم يعمل مثلها في البلاد، وإنما قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي البِلادِ﴾».

(84) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٨) أنّ «الوادي: ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماءٌ. هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿جابُوا الصَّخْرَ بِالوادِ﴾».

ثم نقل عن الثعلبي أنّ المراد: «بوادي القرى».

ونقل عن قوم أنّ «المعنى: جابوا واديهم، وجلبوا ماءهم في صخر شقُّوه».

ثم علّق بقوله: «وهذا فعل ذي القوة والآمال».

كما قال تعالى: وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ [الأعراف: 74].

وقال سُبحانَه: وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ [الشعراء: 149].

وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10).

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ؟(85)

كما قال تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ [ص: 12].

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11).

أي: هؤلاء الَّذين سَلَف ذِكْرُهم -عادٌ وثَمودُ وفِرعونُ- قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ.

---

(85) اختُلف في معنى: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾، ولِمَ قيل لفرعون كذلك؟ على أقوال: الأول: ذي الجنود الذين يقوُّون له أمره؛ فالأوتاد في هذا الموضع: الجنود.

الثاني: قيل له ذلك لأنه كان يوتد الناس بالأوتاد.

الثالث: ذي البناء المحكم.

الرابع: كانت مظالَّ وملاعب يُلعَب له تحتها.

الخامس: قيل له ذلك لأنه كان يُعذِّب الناس بالأوتاد.

السادس: قيل له ذلك لأنه كان له بنيان يُعذِّب الناس عليه.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٧٣) -مستندًا إلى الأعرف من لغة العرب- القول الثاني، فقال: «عُنِيَ بذلك: الأوتاد التي توتد، من خشب كانت أو حديد؛ لأنّ ذلك هو المعروف من معاني الأوتاد، ووُصِف بذلك لأنه إمّا أن يكون كان يُعذِّب الناس بها، كما قال أبو رافعٍ وسعيد بن جُبَير، وإمّا أن يكون كان يُلْعَبُ له بها».

فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12).

أي: فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ، والظُّلمِ والعُدْوانِ.

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13).

أي: فأنزَلَ ربُّك عليهم –يا محمَّدُ– عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جميعًا.

كما قال تعالى: فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [العنكبوت: 40].

وقال سُبحانَه: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا [محمد: 10].

وقال عزَّ وجلَّ: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً [الحاقة: 5 –10].

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14).

أي: إنَّ رَبَّك –يا محمَّدُ– مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، ومُطَّلِعٌ على أفعالِهم، وسامِعٌ لأقوالِهم؛ حتَّى يأخُذَهم ويُهلِكَهم.(86)

كما قال تعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ [الحج: 48].

(86) ذكر ابن القيم (٣/ ٢٩٦) أن «قوله تعالى: ﴿والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر﴾؛ قيل جوابه: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾».

ثم انتقد هذا القول –مستندًا إلى الدلالة العقلية والسياق– فقال: «وهذا ضعيف لوجهين: أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة، والثاني: قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ ذُكِرَ تقريرًا لعقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد وثمود وفرعون، فذكر عقوبتهم ثم قال مقرّرًا ومحذّرًا: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾، أفلا ترى تعلقه بذلك دون القسم؟!».

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٠٩) نقلًا عن اللغويين أنّ «المرصاد»: موضع الرصد، ثم وجَّهه بقوله: «أي أنه عند لسان كلّ قائل، ومرصدٌ لكل فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاء جواب عامر بن قيس لعثمان – رضي الله عنهما – حين قال له: أين ربّك، يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد».

ثم ذكر احتمالًا آخر: «أن يكون» المرصاد «في الآية اسم فاعل».

ثم وجَّهه بقوله: «كأنه تعالى قال: لَبِالرّاصد، فعبَّر ببناء مبالغة، وروي في بعض الحديث «إنّ على جسر جهنم ثلاث قناطر، على إحداها الأمانة، وعلى الأخرى الرَّحِم، وعلى الأخيرة الرّبّ تعالى، فذلك قوله: ﴿إن رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ﴾»».

سورةُ الفَجْرِ

الآيات (15–20)

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)

غريب الكلمات:

فَقَدَرَ: أي: ضيَّق، فلم يُكْثِرْ مالَه، ولم يُوَسِّعْ عليه، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقْتُه، كأنَّما جعَلْته بقَدرٍ، وقُدِر عليه الرِّزقُ، أي: أُعْطِيَ ذلك بقَدْرٍ يَسِيرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه.

وَلَا تَحَاضُّونَ: أي: لا يَحُضُّ بعضُكم بعضًا، وأصْلُه: تَتَحاضُّونَ، فحَذَف إحدَى التَّاءيْنِ، وأصلُ (حضض) هنا: البَعْثُ على الشَّيءِ.

التُّرَاثَ: أي: الميراثَ، وهو: أن يكونَ الشَّيءُ لقَومٍ ثمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بنَسَبٍ أو سَبَبٍ.

لَمًّا: أي: مجتَمِعًا شَديدًا، وهو أن يأكُلَ نَصيبَه ونَصيبَ غَيرِه، واللَّمُّ: الجَمعُ الشَّديدُ، مِن قولِكَ: لَممتُ الطَّعامُ لَمًّا: إذا أكَلْتَه جَميعًا. والآكِلُ اللَّمُّ: الَّذي يأكُلُ كُلَّ شَيءٍ يَجِدُه، لا يَسألُ عنه: أحلالٌ هو أمْ حرامٌ، ويأكُلُ الَّذي له ولغَيرِه، وأصلُ (لمم): يدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبةٍ ومُضامَّةٍ.

جَمًّا: أي: كثيرًا، وأصلُ (جمم): يدُلُّ على كَثرةِ الشَّيءِ واجتِماعِه.

تفسير الآيات:

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15).

أي: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبرَه ربُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك؛ ظنًّا منه أنَّ إكرامَ اللهِ في الدُّنيا وإنعامَه عليه دليلٌ على كرامتِه عِندَه!

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16).

أي: وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك!

كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ؛ فاللهُ يُغْني من يَشاءُ ولو كان كافِرًا، ويُفقِرُ مَن يشاءُ ولو كان مُؤمِنًا؛ ابتِلاءً منه لعبادِه بالغِنى والفَقْرِ بمُقتَضى حِكمتِه فيهم، وهو إنَّما يُكرِمُ بطاعتِه، ويُهينُ بمَعصيتِه.(87)

---

(87) معنى: ﴿كلا﴾ في هذه الآية، أي: أنّ الله أنكر أن يكون سبب كرامته مَن أكرم كثرةَ ماله، وسبب إهانة مَن أهان قِلّةَ ماله. ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣٧٨ بتصرف) عن آخرين: «أنّ الله –جلَّ ثناؤه– أنكر حَمْدَ الإنسان ربَّه على نِعَمِه دون فقره، وشكواه الفاقة، وقالوا: معنى الكلام: كلا، أي: لم يكن ينبغي أن يكون هكذا، ولكن كان ينبغي أن يحمَدَه على الأمرين جميعًا؛ على الغنى والفقر».

كما قال تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [الأنبياء: 35].

وقال سُبحانَه: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ [الحجرات: 13].

بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ.

أي: أنتم -أيُّها النَّاسُ- مَن تَستهينونَ بأمرِ اللهِ فتعصُونَه، فلا تُكرِمونَ اليتيمَ الَّذي فقَدَ أباه دونَ سِنِّ البُلوغِ؛ فتَسُدُّوا حاجتَه، وتُحسِنوا إليه ولا تَظلِموه شيئًا.

كما قال تبارك وتعالى: وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ [النساء: 36].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ [الإسراء: 34].

وقال عزَّ وجَلَّ: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [الضحى: 9].

وقال تبارك وتعالى: فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ [الماعون: 2].

وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18).

أي: ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ.

ثم رجَّح (٢٤/ ٣٧٨) القول الأول مستندًا إلى السياق، وعلَّل ذلك بقوله: «لدلالة قوله: ﴿بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ والآيات التي بعدها على أنّه إنّما أهان مَن أهان بأنه لا يُكرِمِ اليتيم، ولا يحضّ على طعام المسكين، وسائر المعاني التي عدّد، وفي إبانته عن السبب الذي من أجله أهان مَن أهان الدلالة الواضحة على سبب تكريمه من أكرم، وفي تَبْيينه ذلك عَقِيب قوله: ﴿فَأَمّا الإنْسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَن وأَمّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أهانَنْ﴾ بيانٌ واضحٌ عن أنّ الذي أنكر مِن قوله ما وصفنا».

كما قال الله تبارك وتعالى: وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ [الإسراء: 26].

وقال سُبحانَه: وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [الماعون: 3].

وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (19).

أي: وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا لا تَترُكونَ منه شَيئًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ!

وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20).

أي: وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا، فتَحرِصونَ على جَمْعِه واقتنائِه، فلا تُنفِقونَه في الخَيرِ.

كما قال تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14].

وقال سُبحانَه: كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآَخِرَةَ [القيامة: 20–21].

وقال تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 16–17].

وقال الله سبحانه وتعالى: الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [الهمزة: 2–3].

وقال تبارك وتعالى: وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [العاديات: 8].

سورةُ الفَجْرِ

الآيات (21–30)

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ
بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24)
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ
(27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي
(30)

غريب الكلمات:

دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا: أي: زُلزِلَت الأرضُ، وحُرِّكَت تحريكًا بعدَ تحريكٍ، والدَّكُّ: الكَسرُ والدَّقُّ وحَطُّ المُرتَفِعِ مِنَ الأرضِ بالبَسْطِ، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ.

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ: الوَثاقُ بفتحِ الواوِ اسْمُ مَصْدَرِ أوْثَق، وهو الرَّبْطُ، يقالُ: أَوْثَقْتُه: أي: شددتُه، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ، وأصل (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ.

الْمُطْمَئِنَّةُ: أي: السَّاكِنَةُ الموقِنَةُ بالإيمانِ وتوحيدِ اللهِ، فلا يُخالِطُها شَكٌّ، ولا يَعْتَرِيها رَيْبٌ، الَّتي اطْمأَنَّتْ إلى وَعْدِ اللهِ، وصدَّقَتْ بما قال، والطُّمَأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ، وأصلُ الطُّمأنينةِ: السُّكونُ.

تفسير الآيات:

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21).

أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمرُ؛ فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ الَّتي لا يَبقى منها ولا مِن مَتاعِها شَــيءٌ؛ فإنَّه إذا وقع دَكُّ الأرضِ يومَ القيامةِ ورَجُّها وزلزلتُها مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً.

كما قال تعالى: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ [الحاقة: 14-15].

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22).

أي: وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَــرِ لحِســابِ عبادِه والقَضــاءِ بيْنَهم مجيئًا يَليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وجاءت الملائكةُ صُفوفًا صَفًّا بعدَ صَفٍّ، خاضِعينَ للهِ.

كما قال تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِــيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ [البقرة: 210].

وقال سُبحانَه: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [الزمر: 69].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [النبأ: 38].

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23).

وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ.

أي: وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جهنَّمَ.[88]

كما قال الله تعالى: وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [الفرقان: 11-12].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يُؤْتَى بجهنَّمَ يومَئذٍ لها سَبْعونَ ألْفَ زِمامٍ،[89] مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يجُرُّونَها)).[90]

---

(88) قال ابنُ عطية (٨/ ٦١٤): «ورُوي أنه لما نزلت: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تغيّر لون النبي - ﷺ -».

(89) الزِّمامُ: ما يُزَمُّ به الشَّيءُ، أي: يُشَدُّ ويُربطُ.

يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (186/7).

(90) رواه مسلم (2842).

يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى.

أي: في ذلك اليَومِ يتذكَّرُ الإنسانُ عِصيانَه وطُغيانَه، وما فاته مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ؛ فلا تنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمولاه.

كما قال سبحانه وتعالى: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ [الزمر: 56].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ [النبأ: 40].

يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24).

أي: يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ والطَّاعةِ لحياتي الأبَديَّةِ في الآخِرةِ، فألقَى فيها ثَوابَها!

كما قال تعالى: حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا [الأنعام: 31].

وقال سُبحانَه: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا [الفرقان: 27].

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25).

أي: فيومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ عَذابًا منه.

كما قال تعالى: وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى [طه: 127].

وقال سُبحانَه: فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ [الغاشية: 24].

وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26).

أي: ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ وَثاقًا منه.

كما قال تعالى: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ [غافر: 71-72].

وقال تعالى: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا [الإنسان: 4].

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ: لَا يُعَذَّبُ وَلَا يُوثَقُ بفَتحِ الذَّالِ والثَّاءِ، أي: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ عَذابِ هذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ، وكذا لا يُوثَقُ وَثاقَه أحَدٌ.[91]

2- قِراءةُ: لَا يُعَذِّبُ وَلَا يُوثِقُ بكَسرِ الذَّالِ والثَّاءِ. قيل: المعنى: لا يعذِّبُ أحدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحدٌ مِثلَ وَثاقِ اللهِ لأهلِ النَّارِ. وقيل: أي: لا يتولَّى يومَ القيامةِ عَذابَ اللهِ أحدٌ غَيْرُه؛ فالمُلْكُ له وَحْدَه، وملائِكةُ العَذابِ يَأتَمِرونَ بأمْرِه في تعذيبِ الكافِرينَ وأَسْرِهم في القُيودِ.[92]

---

(91) قرأ بها الكِسائيُّ، ويعقوبُ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/400).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (3/145)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 763).

(92) قرأ بها الباقون.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27).

أي: يُقالُ: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، الثَّابِتةُ على الحَقِّ.

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28).

أي: ارجِعي إلى اللهِ الَّذي ربَّاك بنِعَمِه وفَضْلِه، راضيةً باللهِ وثَوابِه، مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى.[93]

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (400/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (145/3)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 763)، ((الوسـيط)) للواحدي (486/4)، ((تفسير ابن عطية)) (481/5).

(93) اختُلف في معنى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: ارجعي إلى ربّكِ عند الموت في الدنيا.

الثاني: ارجعي إلى جسدكِ عند البعث يوم القيامة، والرّبّ هنا: صاحبها.

الثالث: ارجعي إلى ثواب ربّكِ في الآخرة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٩٧ – ٣٩٨) القول الثاني مستندًا إلى السياق، وهو قول ابن عباس، والضَّحّاك، ومحمد بن كعب، وعلَّل ذلك بقوله: «لدلالة قوله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ على صحة ذلك، وأنّ دخولها الجنة إنما هو يومئذٍ لا قبل ذلك».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٦١٦) قولين آخرين، ووجَّههما، فقال: «قال بعض العلماء: هذا النداء هو الآن للمؤمنين، كما ذكر الله تعالى حال الكافرين، قال: يا مؤمنون، دُوموا وجدُّوا حتى ترجعوا راضين مَرْضِيّين، فالنفس –على هذا– اسم الجنس...

وقال آخرون: هذا النداء إنما هو في الموقف عندما يُنطلَق بأهل النار إلى النار، فنداءُ النفوس –على هذا– إنما هو نداء أرباب النفوس مع النفوس، ومعنى ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ –على هذا–: إلى رحمة ربك».

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ٣٠٠) مستندًا إلى الدلالة العقلية «أنّ هذا القول يُقال لها عند الخروج من الدنيا، ويوم القيامة. فإنّ أول بعثها عند مفارقتها الدنيا، وحينئذٍ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت مطمئنة إلى الله وفي جنته كما دلّتْ عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذ فيكون تمام الرجوع إلى الله، ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته يوم القيامة، فلا اختلاف في الحقيقة».

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/ ٣٥٠) القول الأول مستندًا إلى النظائر، وانتقد ترجيح ابن جرير قائلًا: «واختاره –أي: القول الثاني– ابن جرير، وهو غريب، والظاهر الأول؛ لقوله: ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ [الأنعام: ٦٢]، ﴿وأن مردنا إلى الله﴾ [غافر: ٤٣] أي: إلى حكمه والوقوف بين يديه».

كما قال تعالى: جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ [البينة: 8].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ – ﷺ – قال: ((إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ مِن حَنوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأطيبِ نَفحةِ مِسكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بِها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَليها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى)).[94]

(94) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (12059)، وأحمدُ (18534)، والطَّيالِسيُّ (789)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (107) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30).

أي: فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ الطَّائِعينَ وفي زُمْرتِهم، وادْخُلي جَنَّتي معهم.

كما قال الله تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69].

وقال سُبحانَه وتعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 9].

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (494/2)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (1/ 300)، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (3558)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (4/280).

تَفْسِيرُ
سُورَةِ البَلَدِ

سُورةُ البَلَدِ

سُورةُ البَلَدِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (البَلَدِ).[95]

سورةُ البَلَدِ مَكِّيَّةٌ،[96] نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[97]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ طبيعةِ الدُّنيا وما يُعانيه الإنسانُ فيها مِن مُكابَدةٍ للشَّدائدِ، وما يُوصلُه إلى السَّعادةِ.

---

(95) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِ اللهِ تعالى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (520/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (345/30).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ لَا أُقْسِمُ، وسورةَ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وسورةَ (العَقَبةِ).

يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (3/ 367)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (520/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (345/30).

(96) وقيل: مَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (110/7)، ((تفسير الزمخشري)) (753/4)، ((تفسير ابن عطية)) (454/5).

(97) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (446/4)، ((تفسير القرطبي)) (59/20).

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- التَّنويهُ بشَأنِ مَكَّةَ.

2- ما ابتُلِيَ به الإنسانُ في الدُّنيا مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ.

3- ذَمُّ الاغترارِ بالقُوَّةِ، والتَّفاخُرِ.

4- تَعدادُ نِعَمِ اللهِ تعالى على الإنسانِ.

5- الحَضُّ على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ.

6- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكُفَّارِ.

سُورةُ البَلَدِ

الآيات (1–10)

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ
لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)

غريب الكلمات:

حِلٌّ: أي: حَلالٌ تَصنَعُ فيه ما تُريدُ مِنَ القَتلِ والأَسْرِ. وقيل: حالٌّ ساكِنٌ به، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ.

كَبَدٍ: أي: مَشقَّةٍ وتَعَبٍ ومُكابَدةٍ لأُمورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأصلُ (كبد): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ وقُوَّةٍ.

لُبَدًا: أي: كثيرًا مجتَمِعًا بَعضُه على بَعضٍ، مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ، أي: تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ.

النَّجْدَيْنِ: أي: الطَّريقَينِ؛ طَريقَ الخَيرِ، وطريقَ الشَّرِّ، والنَّجْدُ: الطَّريقُ في ارتِفاعٍ. وكلُّ عالٍ مِنَ الأرضِ: نَجْدٌ، وأصلُ (نجد): يدُلُّ على اعتِلاءٍ وإشرافٍ.

تفسير الآيات:

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (1).

أي: أُقسِمُ بهذا البَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ.

كما قال تعالى: وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ [التين: 3].

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (2).

أي: أُقسِمُ بمكَّةَ والحالُ أنَّك –يا محمَّدُ– حلالٌ به في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ؛ يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها.[98]

---

(98) اختُلف في معنى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ على قولين: الأول: أنت حلال بهذا البلد يحلّ لك فيه قتْل مَن شئتَ.

الثاني: أنت مُحِلٌّ بهذا البلد غير محرم في دخوله.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٦١٨) القول الأول بقوله: «وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يتركب قول مَن قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح.

ويتركب على هذا التأويل قول مَن قال: ﴿لا﴾ نافية، أي: إنّ هذا البلد لا يُقسِم الله به، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حُرمته.

ويتّجه أيضًا أن تكون ﴿لا﴾ غير نافية».

ووجَّه ابنُ القيم (٣/ ٣٠٣) القول الثاني بأنه «حلال ساكن البلد، بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع، ولأنّ أمْنه إنما تظهر به النعمة عند الحِلّ من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان، والحرمة هناك للفعل لا للمكان، والمقصود هو ذِكْر حرمة المكان، وهي إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمْنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به وفيه الحلال فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن».

ونقل ابنُ عطية عن بعض المتأولين أنّ المعنى: «وأنت ساكنٌ بهذا البلد».

ثم وجَّهه بقوله: «وعلى هذا يجيء قول مَن قال: هي مكيّة.

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِــي اللَّهُ عنه، قال: ((إِنَّ خُزاعَةَ قَتَلوا رجلًا مِن بني لَيْثٍ عامَ فَتْحِ مَكَّةَ بقَتيلٍ منهم قَتَلوه، فأُخْبِرَ بذلك رسولُ اللهِ – ﷺ –، فرَكِب راحِلَتَه، فخَطَب، فقالَ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ حَبَس عن مَكَّةَ الفيلَ، وسَــلَّطَ عليها رَسـولَه والمُؤْمنينَ، ألَا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، ولنْ تَحِلَّ لأحَدٍ بَعْدي، ألَا وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن النَّهارِ، ألا وإنَّها ساعَتي هذه حَرامٌ)).(99)

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِـي اللَّهُ عنهما، أنَّ النَّبِيَّ – ﷺ – قالَ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لأحَدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدي وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ)).(100)

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3).

أي: وأُقسِمُ بوالِدٍ، وأقسِمُ بوَلَدِه.(101)

والمعنى على إيجاب القسم بيّن، وعلى نفيه أيضًا يتّجه على معنى: لا أُقسِم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم».

ووجَّهه ابنُ القيم (٣/ ٣٠٤) بأنه «متضمن لهذا التعظيم، مع تضمّنه أمرًا آخر، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشــتمل على خير العباد، فجعل بيته هدًى للناس، ونبيّه إمامًا وهاديًا لهم، وذلك من أعظم نِعمه وإحســانه إلى خَلْقه، كما هو مِن أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيّه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية».

ثم نقل عن شــرحبيل بن ســعد –حكاية عن الثعلبي– أنّ المعنى: «قد جعلوك حلالًا مُســتَحل الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا».

(99) رواه البخاريُّ (6880) ومسلمٌ (1355).

(100) رواه البخاريُّ (1833).

(101) اختُلف في معنى: ﴿ووالِدٍ وما ولَدَ﴾ على أقوال: الأول: عُنِيَ بالوالد: كلّ والد، وما ولد: كلّ عاقر لم يلد.

الثاني: عني بذلك: آدم، وولده.

الثالث: إبراهيم، وما ولد.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (4)﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه، يُكابِدُ أُمورَ حياتِه ومَعيشتِه، وهمومَ دُنياه وآخِرته.(102)

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٠٨) العموم، فقال: «إنّ الله أقسم بكلّ والدٍ وولده».

وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله عمَّ كلَّ والدٍ وما ولد، وغير جائزٍ أن يُخَصَّ ذلك إلا بحجّةٍ يجب التسليم لها من خبر، أو عقل، ولا خبر بخصوص ذلك، ولا برهان يجب التسليم له بخصوصه، فهو على عمومه كما عمَّه».

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/ ٣٥٤) القول الثاني، وهو قول مجاهد وما في معناه مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وهذا الذي ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسنٌ قوي؛ لأنه تعالى لما أقسم بأمّ القُرى وهي المساكن أقسم بعده بالساكن، وهو آدم أبو البشر وولده».

ثم ذكر أنّ اختيار ابن جرير محتمل أيضًا.

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٦١٩) عن بعض رواة التفسير أنّ معنى الآية: «نوح، وجميع ولده».

ونقل عن ابن عباس ما معناه: «أنّ الوالد والولد هنا على العموم؛ فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان».

(102) اختُلف في معنى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي كَبَدٍ﴾ على أقوال: الأول: لقد خلقنا ابن آدم في شدة وعناء ونصب.

الثاني: خُلِقَ مُنتَصبًا مُعتَدِل القامة.

الثالث: أنه خُلِق في السماء.

ووجَّه ابنُ كثير (١٤/ ٣٥٤) القول الثاني بقوله: «ومعنى هذا القول: لقد خلقنا الإنسان سويًّا مستقيمًا كقوله: ﴿يا أيُّها الإنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦ – ٧]، وكقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤١٢) –مستندًا إلى لغة العرب– القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وسعيد بن جُبَير، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب من معاني الكَبَد».

وكذا رجَّحه ابنُ عطية (٨/ ٦٢٠) ولم يذكر مستندًا، وانتقد القول الثاني والثالث قائلًا: «وهذان القولان قد ضُعِّفا».

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5).

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ فاللهُ غالِبُه وقاهِرُه، وهو قادِرٌ عليه وعلى بَعْثِه وعُقوبتِه.

كما قال الله تعالى: أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ [القيامة: 3–4].

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6).

أي: يَقولُ هذا الإنسانُ المبَذِّرُ أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه ومَلَذَّاتِه: أنفَقْتُ مالًا كثيرًا.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا [النساء: 38].

وقال سُبحانَه وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [الأنفال: 36].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ [الإسراء: 27].

أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7).

أي: أيَظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ، وأنَّه لن يُحاسِبَه ويُجازيَه على ذلك؟!

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8).

أي: أَلَمْ نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما؟

وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9).

أي: أوَلَم نجعَلْ له لِسانًا وشفَتينِ يَستعينُ بهما على النُّطقِ أو غَيرِه مِنَ المنافِعِ؟

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10).

أي: وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطَريقَ الشَّرِّ.(103)

(103) اختُلف في معنى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: سبيل الخير والشّرّ.

الثاني: هديناه الثَّدْيَيْن ليتغذّى بلبنهما.

ووجّه ابنُ عطية (٨/ ٦٢١) القول الأول بقوله: «أي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد».

ووجّه القول الثاني بقوله: «وهذا مثال».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤١٩) -مستندًا إلى النظائر- القول الأول، وهو قول ابن مسعود من طريق زرّ، وقول ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «إنّ الله -تعالى ذِكْره- إذ عدَّد على العبد نعمه بقوله: ﴿إنّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِن نُطْفَةٍ أمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٢ - ٣] إنما عدَّد عليه هدايته إيّاه إلى سبيل الخير من نِعَمه، فكذلك قوله: ﴿وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾».

سُورةُ البَلَدِ

الآيات (11–20)

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

غريب الكلمات:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ: أي: لم يَقتَحِمْها ولا جاوَزَها، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الأمرِ الشَّديدِ، والمُجاوَزةُ له بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، والعَقَبةُ: طَريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والعَقَبةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لِمُجاهدةِ النَّفْسِ والهوى والشَّيطانِ في أعمالِ البِرِّ، فجعَلَه كالَّذي يتكَلَّفُ صُعودَ العَقَبةِ، يقولُ: لم يَحمِلْ على نَفْسِه المشَقَّةَ بعِتقِ الرَّقَبةِ ولا الإطعامِ. وقيل: هي عَقَبةُ جهنَّمَ، أو: هي عقَبةٌ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ. وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ.

فَكُّ رَقَبَةٍ: أي: عِتقُ مَملوكٍ وتخليصُه مِن إسارِ الرِّقِّ، وكلُّ شَيءٍ أطْلَقْتَه فقَدْ فكَكْتَه، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانفِراجٍ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ، ومِن ذلك اشتِقاقُ الرَّقَبةِ؛ لأنَّها مُنتصِبةٌ، ولأنَّ النَّاظِرَ لا بُدَّ يَنتَصِبُ عندَ نَظَرِه.

مَسْغَبَةٍ: أي: مَجاعةٍ، وأصلُ (سغب): يدُلُّ على جوعٍ.

مَتْرَبَةٍ:أي: فقرٍ، يُقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتقَر، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ، فليس له شيءٌ غير التُّرابِ، وأصلُ (ترب) هنا: التُّرابُ وما يُشتَقُّ منه.

بِالْمَرْحَمَةِ: أي: بالرَّحمةِ والعطفِ والتَّراحُمِ فيما بيْنَهم، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأْفةِ.

الْمَيْمَنَةِ: أي: اليمينِ، أو مُشتَقَّةٌ مِن اليُمْنِ، وهو ضِدُّ الشُّؤمِ، واليُمْنُ: البَرَكةُ.

الْمَشْأَمَةِ: أي: الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانِبِ اليَسارِ.

مُؤْصَدَةٌ: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

تفسير الآيات:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11).

أي: فلَمْ يَقطَعِ الغنِيُّ العَقَبةَ الشَّــديدةَ، ويتكَلَّفْ صُــعودَها ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ والإحسانِ.(104)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12).

أي: وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ العَظيمةُ الَّتي حَثَّ اللهُ على اقتِحامِها؟

---

(104) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٢٢) اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿فَلا﴾ على أقوال: «فقال جمهور المفسرين: هو تحضيض بمعنى: فَأَلا.

وقال آخرون: هو دعاءٌ بمعنى أنه يستحق أنْ يُدعى عليه بأن لا يفعل خيرًا.

وقيل: هو نفي، أي: فما اقتحم، وقاله أبو عبيدة، والزّجّاج.

ثم وجَّه القول الأخير بقوله:» وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فَلا صَــدَّقَ ولا صَــلّى﴾ [القيامة: ٣١]، فهو نفيٌ محض، كأنه تعالى قال: وهبنا له الجوارح ودَلَلْناه على السبيل فما فعل خيرًا".

واختُلف في «العقبة» هل هي مثل عقبة الدنيا، أو هي عقبة حقيقية في الآخرة؟ على قولين: الأول: أنها مثَلٌ ضــربه الله لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر.

الثاني: أنها عقبة حقيقة، يصعدها الناس.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٢٢) أن معنى «﴿العَقَبَةَ﴾ في هذه الآية -على عرف كلام العرب- اســتعارة لهذا العمل الشــاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعودًا».

ثم ذكر أنّ المفسرين رأوا «أنّ ﴿العَقَبَةَ﴾ يراد بها: جبل في جهنم، لا ينجِّي منه إلا هذه الأعمال ونحوها. قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب».

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ٣٠٨) القول الثاني -مستندًا إلى أقوال السلف، والنظائر- قائلًا: «فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله: ﴿وما أدْراكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم».

فَكُّ رَقَبَةٍ (13).

أي: تخليصُ إنسانٍ مِن رِقّ العُبوديَّةِ.

كما قال تعالى: وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ [البقرة: 177].

وعن أبي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيّ – ﷺ – قال: ((مَنْ أَعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى فَرْجَه بفَرْجِه)).[105]

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيّ – ﷺ –، فقال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ. فقال: لئِنْ كُنتَ أقصَرْتَ الخُطْبةَ لَقد أعرَضْتَ المسألةَ، أَعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقَبةَ. فقال: يا رَسولَ اللهِ، أوَلَيْسَتا بواحِدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعِينَ في عِتْقِها)).[106]

---

(105) رواه البخاريُّ (6715) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1509).

(106) فكُّ الرقبةِ: تخليصُ الشَّخصِ مِن الرِّقِّ، وخُصَّ في هذا الحديثِ بمَن أعان في عتقِها حتَّى تعتقَ، وإذا ثبت الفضلُ في الإعانةِ ثبَت في التفرُّدِ بالعتقِ مِن بابِ أولَى.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (5/ 146).

أخرجه أحمدُ (18647) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (374)، والحاكمُ (2861).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (174/5)، والألبانيُّ في ((صحيح الموارد)) (1017)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وكذا شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (600/30).

أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14).

أي: أوْ تَقديمُ الطَّعامِ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ.

كما قال تعالى: وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا [الإنسان: 8].

يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15).

أي: ليتيمٍ مِن أقارِبِه.

أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16).

أي: أوْ لِمسكينٍ لا شيءَ له.(107)

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17).

---

(107) اختُلف في معنى: ﴿ذا مَتْرَبَةٍ﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: ذو اللصوق بالتراب.
الثاني: هو المحتاج؛ كان لاصقًا بالتراب، أو غير لاصق به.
الثالث: ذو العيال الكثير الذين قد لصقوا بالتراب من شدة الحاجة.
ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٣١) –مســـتندًا إلى اللغة– القول الأول، وهو قول ابن عباس من طريق مجاهد، وما في معناه، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك هو الظاهر من معانيه، وأنّ قوله: ﴿مَتْرَبَةٍ﴾ إنما هي» مَفْعَلَة «مِن: تَرِب الرجل، إذا أصابه التراب».

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: ثمَّ إنَّ المُنفِقَ مالَه في فَكِّ الرِّقابِ، أو إطعامِ اليتيمِ القَريبِ، أو إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ: يَنبغي أن يكونَ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به؛ فتلك القُرُباتُ إنَّما تَنفَعُ مع الإيمانِ.

كما قال تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19].

وقال سُبحانَه: وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ [غافر: 40].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهِليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا يَنفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ)).[108]

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ.

---

(108) رواه مسلم (214).

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بعضُهم بعضًا بالرَّحمةِ بالمساكينِ واليَتامى والضُّعَفاءِ، وسائِرِ الخَلْقِ.(109)

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ: إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى)).(110)

وعن جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ)).(111)

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18).

أي: أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ.

ثُمَّ بيَّن الله سُبحانَه سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال:

---

(109) نقل ابنُ عطية (٨/ ٦٢٥) في معنى: ﴿الْمَرْحَمَةِ﴾ عن ابن عباس قوله: «كلّ ما يؤدي إلى رحمة الله تعالى».
ونقل عن آخرين قولهم: «هو التراحم، وعطف بعض الناس على بعض».
وعلَّق عليه بقوله: «وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا».
(110) رواه البخاريُّ (6011)، ومسلمٌ (2586) واللَّفظُ له.
(111) رواه البخاري (7376).

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19).

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ.

عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20).

أي: عليهم نارٌ مُطبَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الشَّمسِ

سُورةُ الشَّمسِ

سُورةُ الشَّمسِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (الشَّمسِ)،(112) وأيضًا: وَالشَّمْسِ.

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا: فعن جابرٍ، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي معَ النَّبيِّ - ﷺ -، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ - ﷺ -العِشاءَ، ثمَّ أتى قومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفتَّانٌ(113) أنت؟! اقرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)).(114)

سُورةُ الشَّمسِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.(115)

---

(112) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (522/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (365/30).

(113) أفَتَّانٌ: أي: مُنَفِّرٌ عن الدِّينِ وصادٌّ عنه، فالفِتنةُ على وُجوهٍ، ومعناها هاهنا: صَرفُ النَّاسِ عن الدِّينِ، وحَمْلُهم على الضَّلالِ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (182/4)، ((فتح الباري)) لابن رجب (230/6).

(114) أخرجه مسلم (465).

(115) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي.

مِن أَهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

1- التَّرغيبُ في الطَّاعاتِ، والتَّحذيرُ مِن المعاصي.

2- تَهديدُ المُشرِكينَ بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصِيبَهم عَذابٌ بسببِ كفرِهم، كما أصاب مَن قبْلَهم.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- البَدءُ بالقَسَمِ بالمخلوقاتِ العَظيمةِ؛ مِمَّا هو دليلٌ على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى.

2- ذِكرُ أحوالِ النُّفوسِ ومَراتِبِها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ.

3- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ مَن يُزكِّي نَفْسَه، وسوءِ عاقِبةِ مَن يَتبَعُ هَواها.

4- الخَبَرُ عن إهلاكِ ثَمودَ، وتهديدِ المُشرِكينَ بأنَّهم سيُصيبُهم عذابٌ كما أصاب ثمودَ إذا ما استمَرُّوا في كُفْرِهم.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (6/281)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/450)، ((تفسير القرطبي)) (20/72)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (3/196).

سُورةُ الشَّمسِ

الآيات (1–10)

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)

غريب الكلمات:

وَضُحَاهَا: الضُّحى: ارتِفاعُ الضَّوءِ وكَمالُه، وقيل: الضُّحى هنا: النَّهارُ كُلُّه، وأصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ.

تَلَاهَا: أي: تَبِعَها، يقال: تلَوْتُ زَيدًا، أي: تَبِعْتُه، وأصلُ (تلو): الاتِّباعُ.

جَلَّاهَا: أي: بَيَّنَها وكشَفَها، والتَّجْلِيةُ: الإظهارُ والكَشْفُ، يقالُ: جَلَّى الأمرَ يُجَلِّيه: إذا أظهَرَه وأبرَزَه وبَيَّنَه، وأصلُ (جلو): انكِشافُ الشَّيءِ وبُروزُه.

يَغْشَاهَا: أي: يُغَطِّيها، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطِيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

طَحَاهَا: أي: بسَطَها ووسَّعَها، وأصلُ (طحو): يدُلُّ على البَسطِ والمَدِّ.

سَوَّاهَا: أي: عَدَّل خَلْقَها، وسَوَّى أعضاءَها، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ.

فُجُورَهَا: الفُجورُ: شَقُّ سِترِ الدِّيانةِ، يقال: فَجَرَ فُجُورًا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسِعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ، ومنه الفُجورُ، وهو الانْبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي.

أَفْلَحَ: أي: فاز بالمطلوبِ ونجا مِن المَرهوبِ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبَقاءُ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فوزٍ وبقاءٍ.

زَكَّاهَا: أي: طهَّرها مِن الكُفْرِ والمَعاصي، وأصْلَحَها بالصَّالِحاتِ مِن الأعمالِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طَهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ.

خَابَ: أي: خَسِرَ وفاتَه الظَّفَرُ. والخَيْبةُ: الحِرمانُ والخُسْرانُ، وأصلُ (خيب): يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ.

دَسَّاهَا: أي: نَقَصَها وأخفاها بالفُجورِ والمعاصي، مِنَ التَّدسيسِ: وهو إخفاءُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ.

تفسير الآيات:

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1).

أي: أُقسِمُ بالشَّمسِ وبضَوئِها.[116]

كما قال تعالى: وَالضُّحَى [الضحى: 1].

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2).

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، فخَرَج مُضيئًا بَعْدَها.[117]

وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3).

---

(116) اختُلف في معنى: ﴿وضُحاها﴾ في هذه الآية على أقوال: الأول: الضّحى: النهار كلّه.

الثاني: ضَوؤها.

الثالث: إشراقها.

الرابع: حرّها.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٦٢٧) على القول الرابع بقوله: «كقوله تعالى: ﴿ولا تَضْحى﴾ [طه: ١١٩]».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٣٥) -مستندًا إلى دلالة اللغة، والعقل- القول الأول، وهو قول قتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ضوء الشمس الظاهرة هو النهار كلّه».

(117) نقل ابنُ عطية (٨/ ٦٢٧) في معنى: ﴿تَلاها﴾ عن الحسن قوله: «﴿تَلاها﴾ معناه: تبعها دأبًا في كلّ وقت؛ لأنه يستضيء منها، فهو يتلوها لذلك».

وعلَّق عليه بقوله: «فهذا اتباعٌ لا يختص بنصف أول من الشهر ولا آخر، وقاله الفراء أيضًا».

ونقل عن الزّجّاج وغيره أنّ «﴿تَلاها﴾ معناه: امتلأ واستدار، فكان لها تابعًا في المنزلة من الضياء والقدر».

وعلَّق عليه بقوله: «لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر».

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها.[118]

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4).

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها.

وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5).

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ، وباللَّذي بناها.[119]

---

(118) اختُلف في معنى: ﴿والنَّهارِ إذا جَلاها﴾ على قولين: الأول: والنهار إذا بيَّن الشمس.
الثاني: إذا جلّاها الرّبّ –تبارك وتعالى– من ظُلمة الليل.
ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٤٣٧) قولًا عن بعض أهل العربية، فقال: «وكان بعض أهل العربية يتأوّل ذلك بمعنى: والنهار إذا جلّى الظُّلمة، ويجعل الهاء والألف من ﴿جَلاها﴾ كنايةً عن الظُّلمة، ويقول: إنما جاز الكناية عنها ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ قبل لأنّ معناها معروف، كما يُعرَف معنى قول القائل: أصبحت باردة، وأمست باردة، وهبَّت شمالًا.
فكنّى عن مؤنَّثاتٍ لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ، إذ كان معروفًا معناهُنَّ».
ثم رجَّح القول الأول –مستندًا إلى أقوال السلف– وهو قول ابن عباس، ومجاهد من طريق ابن أبي نجيح، وقتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنهم أعلم بذلك، وإن كان للذي قاله مَن ذكرنا قوله من أهل العربية وجْهٌ».
واستدرك عليه ابنُ كثير (١٤/ ٣٦٥) –مستندًا إلى السياق، والنظائر– قائلًا: «ولو أنّ هذا القائل تأوّل ذلك بمعنى ﴿والنَّهارِ إذا جَلاها﴾ أي: البسيطة، لكان أولى، ويصح تأويله في قوله: ﴿والليل إذا يغشاها﴾ [الشمس: ٤]، فكان أجود وأقوى، والله أعلم.
ولهذا قال مجاهد: ﴿والنهار إذا جلاها﴾ إنه كقوله: ﴿والنهار إذا تجلى﴾ [الليل: ٢]».
وذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٢٨) لمرجع الضمير في الآية احتمالين، فقال: «والضمير في ﴿جَلّاها﴾ يحتمل أن يعود على الشَّمسِ، ويحتمل أن يعود على الأرض وعلى الظُّلمة، وإن كان لم يجئ لذلك ذكر فالمعنى يقتضيه.
قاله الزَّجّاج».
(119) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٢٨) في معنى: ﴿وما بَناها﴾ احتمالين: الأول: «أن تكون» ما «فيه بمعنى: الذي.
قاله أبو عبيدة، أي: ومَن بناها.
وهو قول الحسن، ومجاهد».

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً [البقرة: 22].

وقال الله سُبحانه وتعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [النازعات:27–28].

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6).

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ، وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ.

كما قال تعالى: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا [الحجر: 19].

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7).

ثم وجَّهه بقوله: «لأنّ» ما «تقع عامة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجيء القسَم بنفسه تعالى».

والثاني: «أن تكون» ما «في جميع ذلك مصدرية.

قاله قتادة، والمبرّد، والزّجّاج».

ثم وجَّهه بقوله: «كأنه تعالى قال: والسماء وبُنْياها».

وعلَّق عليهما ابنُ كثير (١٤/ ٣٦٥) بأنهما متلازمان.

ورجَّح ابنُ تيمية (٧/ ٢١) –مستندًا إلى الدلالة العقلية، والنظائر– أنّ «ما» في هذه الآية والآيتين بعدها اسم موصول على القول الصحيح، «والمعنى: وبانيها، وطاحيها، ومسوِّيها، ولما قال: ﴿قَدْ أفْلَحَ مَن زَكّاها وقَدْ خابَ مَن دَسّاها﴾ [الشمس: ٩ – ١٠] أخبر بـ ﴿مَن﴾ لأنّ المقصود الإخبار عن فلاح عينه، وإن كان فعله للتزكية والتدسية قد ذهب في الدنيا.

فالقَسم هناك بالموصوف بحيث إنه إنما أقسم بهذا الموصوف والصفة لازمة، فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها، ولا مطحية إلا بطاحيها، ولا مسواة إلا بمسويها، وأمّا المرء المُزكِّي نفسه والمُدسِّيها فقد انقضى عمله في الدنيا، وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزمًا لذلك العمل.

ونحو هذا قوله: ﴿وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثى﴾ [الليل: ٣]».

أي: وأُقسِمُ بكُلِّ نَفْسٍ، وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها.

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8).

أي: فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ وعَرَّفَها طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ والطَّاعةِ والمَعصيةِ، وجعَلَها مُهَيَّأةً ومُستَعِدَّةً لسُلوكِ الطَّريقَينِ.

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9).

أي: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والمعاصي والخِصالِ الرَّذيلةِ، ونمَّاها بالإيمانِ والعِلمِ النَّافعِ، والأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحَسَنةِ الحميدةِ.(120)

---

(120) اختُلف في فاعل «زكّى» على قولين: الأول: أن يكون هو الله تعالى.

الثاني: أن يكون الإنسان وعليه تقع ﴿مَن﴾.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٦٢٩) القول الأول بقوله: «كأنه تعالى قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زَكّاها الله تعالى، و﴿مَن﴾ تقع على جمع أو أفراد».

ووجَّه القول الثاني بقوله: «كأنه تعالى قال: قد أفلح مَن زكّى نفسه، أي: اكتسب الزكاء الذي قد خَلَقه الله تعالى له».

ثم ذكر حديث سعيد بن أبي هلال السابق، ثم علَّق عليه بقوله: «وهذا الحديث يُقوّي أنّ المُزكّي هو الله تعالى».

وذكر ابنُ تيمية (٧/ ٢٤) معنى الاحتمال الأول، فقال: «وقيل: قد أفلحتْ نفسٌ زكّاها الله، وقد خابتْ نفس دسّاها الله. وهذا قول الفراء والزّجّاج، وكذلك ذكره الوالبي عن ابن عباس».

ثم انتقده –مستندًا إلى اللغة، والدلالة العقلية– قائلًا: «وهو منقطع، وليس هو مراد من الآية، بل المراد بها الأول [يقصد القول بأن فاعل زكى هو الإنسان] قطعًا لفظًا ومعنى.

أما اللفظ فقوله: ﴿مَن زكّاها﴾ اسم موصول، ولا بُدّ فيه من عائد على ﴿مَن﴾، فإذا قيل: قد أفلح الشخص الذي زكّاها كان ضمير الشخص في ﴿زكّاها﴾ يعود على ﴿مَن﴾، وهذا وجه الكلام الذي لا ريب في صحته، كما يقال: قد أفلح مَن اتقى الله، وقد أفلح مَن أطاع ربه، وقد أفلح مَن خاف منه.

وأمّا إذا كان المعنى: قد أفلح مَن زكّاه الله.

لم يبق في الجملة ضمير يعود على ﴿مَن﴾، فإنّ الضمير على هذا يعود على الله، وليس هو ﴿مَن﴾، وضمير المفعول يعود على النفس المتقدّمة، فلا يعود على ﴿مَن﴾ لا ضمير الفاعل ولا المفعول، فتخلو الصلة من عائد، وهذا لا يجوز.

نعم، لو قيل: قد أفلح مَن زكّى الله نفسه، أو مَن زكّاها الله له، ونحو ذلك صحّ الكلام، وخفاء هذا على مَن قال به مِن النحاة عجب.

وهو لم يقل: قد أفلحتْ نفس زكّاها.

فإنه هنا كانت تكون زكّاها صفة لنفس لا صلة، بل قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاها﴾، فالجملة صلة لـ ﴿مَن﴾ لا صفة لها.

ولا قال أيضًا: قد أفلحتْ النفس التي زكّاها.

فإنه لو قيل ذلك وجعل في ﴿زكاها﴾ ضمير يعود على اسم الله صحّ.

فإذا تكلّفوا وقالوا: التقدير ﴿قد أفلح مَن زكّاها﴾ هي النفس التي زكّاها.

وقالوا: في زكّى ضمير المفعول يعود على ﴿مَن﴾، وهي تصلح للمذكر والمؤنث، والواحد والعدد، فالضمير عائد على معناها المؤنث، وتأنيثها غير حقيقي، ولهذا قيل: ﴿قد أفلح﴾، ولم يقل: قد أفلحتْ، قيل لهم: هذا مع أنه خروج مِن اللغة الفصيحة فإنما يصح إذا دل الكلام على ذلك في مثل: ﴿ومَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ للهِ ورَسُولِهِ وتَعْمَلْ صالِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، فإنّ قوله: ﴿منكن﴾ دلَّ على أنّ المراد: النساء، فقيل:» **تعمل** «، وكذا قوله: ﴿ومِنهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] ونحو ذلك، وأمّا هنا فليس في لفظ ﴿مَن﴾ وما بعدها ما يدل على أنّ المراد به النفس المؤنثة، فإنه لم يقل: قد أفلحتْ، ولا قال: قد أفلح من النفوس مَن زكّاها، وقد تقدّمها قوله: ﴿ونَفْسٍ وما سَوّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها﴾ [الشمس: ٧ – ٨]، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكّاها وقَدْ خابَ مَن دَسّاها﴾، فتقدّم ما يصح عود ضمير المؤنث إليه، ولم يتقدّم دليل على عوده إلى غير ذلك، فلا يجوز أن يُراد بالكلام ما ليس فيه دليل على إرادته؛ فإنّ مثل هذا مما يصان كلام الله عنه، فلو قُدِّر احتمال عود ضمير ﴿زكاها﴾ إلى» **نفس** «وإلى ﴿مَن﴾ مع أنّ لفظ ﴿من﴾ لا دليل يوجب عوده عليه لكان إعادته إلى المؤنث أولى من إعادته إلى ما يحتمل التذكير والتأنيث، وهو في التذكير أظهر لعدم دلالته على التأنيث، فإنّ الكلام إذا احتمل معنيين وجب حمله على أظهرهما، ومَن تكلّف غير ذلك فقد خرج عن كلام العرب المعروف، والقرآن مُنَزّه عن ذلك، والعدول عما يدُلُّ عليه ظاهر الكلام إلى ما لا يدل عليه بلا دليل لا يجوز ألبتة، فكيف إذا كان نصًّا من جهة المعنى؟! فقد أخبر الله أنه يلهم التقوى والفجور، ولبسط هذا موضع آخر.

والمقصود هنا أمر الناس بتزكية أنفسهم، والتحذير من تدسيتها، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكّاها﴾، فلو قُدِّر أنّ المعنى: قد أفلح مَن زكّى الله نفسه لم يكن فيه أمر لهم ولا نهي؛ ولا ترغيب ولا ترهيب.

والقرآن إذا أمر أو نهى لا يذكر مجرد القدر، فلا يقول: مَن جعله الله مؤمنًا.

بل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى﴾ [الأعلى: ١٤]، إذ ذكر مجرد القدر في هذا يناقض المقصود، ولا يليق هذا بأضعف الناس عقلًا؛ فكيف بكلام الله؟! ألا ترى أنه في مقام الأمر والنهي والترغيب والترهيب يذكر ما يناسبه من الوعد والوعيد، والمدح والذم، وإنما يذكر القدر عند بيان نعمه عليهم: إمّا بما ليس من أفعالهم، وإما بإنعامه بالإيمان والعمل الصالح، ويذكره في سياق قدرته ومشيئته، وأمّا في معرض الأمر فلا يذكره إلا عند النِّعم.

كقوله: ﴿ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ ما زَكى﴾ الآية [النور: ٢١]، فهذا مناسب.

وقوله: ﴿قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى﴾ [الأعلى: ١٤]، وهذه الآية من جنس الثانية لا الأولى».

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ٣١٠) –مستندًا إلى النظائر، ودلالة العقل– الاحتمال الثاني، فقال: «هذا القول هو الصحيح، وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى﴾ [الأعلى: ١٤]، وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علّقه بفعل المفلح، كقوله: ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى آخر الآيات».

ثم ذكر حُجة أصحاب الاحتمال الأول، فقال: «قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهّره، وخسارة مَن خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدرٍ سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة، قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿فَألْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها﴾، قالوا: ويشهد له حديث نافع، عن ابن عمر، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة، فوجدتُ رسول الله وهو يقول: «ربِّ، أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكّاها، أنت وليّها ومولاها».

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أنّ النبي كان إذا قرأ: ﴿قَدْ أفْلَحَ مَن زَكّاها﴾ وقف، ثم قال: «اللهم، آتِ نفسي تقواها، أنت وليّها ومولاها، وزكِّها أنت خير مَن زكّاها».

قالوا: وفي هذا ما يبيّن أنّ الأمر كلّه له سبحانه، فإنه هو خالق النفس ومُلهِمها الفجور والتقوى، وهو مُزكّيها ومُدسّيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئًا».

ثم انتقدهم قائلًا: «هذا القول وإن كان جائزًا في العربية، حاملًا للضمير المنصوب على معنى ﴿مَن﴾ وإن كان لفظها مذكرًا، كما في قوله: ﴿ومِنهُمْ مَن يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢] جمع الضمير وإن كان لفظ ﴿من﴾ مفردًا حملًا على نظمها، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وههنا قد تقدم لفظ ﴿من﴾، والضمير المرفوع في ﴿زَكّاها﴾ يستحقه لفظًا ومعنًى، فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظًا ومعنًى، فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه، وأمّا عود الضمير الذي يلي ﴿من﴾ على الموصول السابق، وهو قوله: ﴿ونَفْسٍ وما سَوّاها﴾، وإخلاء جاره الملاصق له وهو ﴿من﴾، ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على ﴿من﴾ ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة؛ فهذا يجوز لو لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه، فأمّا إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه، ولم تدع الضرورة إليه؛ فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه: أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدّم مِن تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أنّ فيه زيادة فائدة، وهي إثبات فعل العبد وكسبه وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَألْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها﴾ إثبات القضاء والقدر السابق، فتضمّنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيرًا ما يقترنان في القرآن؛ كقوله: ﴿إنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَن شاءَ ذَكَرَهُ وما يَذْكُرُونَ إلّا أنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ – ٥٦]، وقوله: ﴿لِمَن شاءَ مِنكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ وما تَشاءُونَ إلّا أنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ العالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ – ٢٩] فتضمّنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [الأعلى: 14].

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10).

أي: وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وقَمَعَها وحقَّرها وأرداها بالكفرِ والرَّذائِلِ والعُيوبِ، ودنَّسَها بالسَّيِّئاتِ والذُّنوبِ.

الثالث: أنّ قولنا يستلزم قولكم دون العكس، فإنّ العبد إذا زكّى نفسه ودسّاها فإنما يزكّيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يُدسّيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر ألبتة».

سُورةُ الشَّمسِ

الآيات (11–15)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا(15)

غريب الكلمات:

بِطَغْوَاهَا: أي: بِطُغْيانِها، والطَّغْوى: اسمٌ مِن الطُّغْيانِ، وأصْلُه مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ.

انْبَعَثَ: أي: نَهَض، وخَرَج بسُرعةٍ ونَشاطٍ، والانبِعاثُ هو الإسْراعُ فِي الطَّاعةِ للباعِثِ، وأصلُ (بعث): الإثارةُ.

فَعَقَرُوهَا: أي: نَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرْحِ شَيْءٍ.

فَدَمْدَمَ: أي: دَمَّر عليهم وأهلَكَهم، والدَّمْدَمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ، ودَمدَمَ مُكَرَّرُ دَمَّمَ؛ للمُبالَغةِ، وأصلُ (دمم): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ، ومنه الدَّمْدَمةُ بمعنى الإهلاكِ، وذلك لِمَا غَشَّاهم به مِن العذابِ، والإهلاكِ.

عُقْبَاهَا: أي: عاقِبَتَها وتَبِعَتَها، وأصلُ (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بَعْدَ غَيرِه.

تفسير الآيات:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11).

أي: كذَّبت ثمودُ بالحقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم.(121)

كما قال تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [فصلت: 17].

إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12).

أي: حينَ نَهَضَ أشقى قومِ ثمودَ لعَقرِ النَّاقةِ الَّتي جعَلَها اللهُ آيةً عَظيمةً لهم.

كما قال تعالى: وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا [الإسراء: 59].

وقال سُبحانَه: إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ * وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ [القمر: 27 - 29].

---

(121) ذكر ابنُ كثير (١٤/ ٣٦٩) في معنى الآية: أنّ الله تعالى يخبر «عن ثمود: أنهم كذَّبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي».

ثم نقل قول محمد بن كعب، ثم علَّق بقوله: «والأول أولى، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما».

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَ رَسولُ اللهِ - ﷺ -، فذكَرَ النَّاقةَ، وذكَرَ الَّذي عقَرَها، فقال: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا: انبعَث بها رجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِه، مِثلُ أبي زَمْعةَ)).[122]

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13).

أي: فقال لهم رَسولُ اللهِ صالِحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نَصيبًا لها.

كما قال تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [الأعراف: 73].

وقال سُبحانَه: قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ [الشعراء: 155-156].

---

(122) العَزيزُ: الغالِبُ القَليلُ المِثْلِ.
والعارِمُ: الجَبَّارُ الصَّعْبُ على مَن يُريدُه.
والمَنيعُ في رَهْطِه: المُمتنِعُ بسُلطانِه وعَشيرتِه.
وأبو زَمْعةَ: هو الأسوَدُ بنُ المُطَّلِبِ بنِ أسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى، وهو جَدُّ عَبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ بنِ الأسودِ؛ راوي الحديثِ المَذْكورِ، وكان الأسْوَدُ أحدَ المُستَهزِئينَ برَسولِ اللهِ - ﷺ -، ومات على كُفْرِه بمكَّةَ، وقُتِلَ ابنُه زَمْعةَ يومَ بَدرٍ كافِرًا أيضًا.
يُنظر: ((المفهم لما أشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (7/429)، ((فتح الباري)) لابن حجر (1/296).
رواه البخاريُّ (4942)، ومسلمٌ (2855) واللَّفظُ له.

وقال عزَّ وجلَّ: وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ [القمر: 28].

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14).

فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا.

أي: فكَذَّب كُفَّارُ ثمودَ نَبيَّهم صالحًا؛ فذبحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا.

كما قال الله تبارك وتعالى: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ [الأعراف: 77-78].

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا.

أي: فأطبَقَ اللهُ على ثمودَ العُقوبةَ بسببِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسوَّى بيْنَهم جميعًا في الهلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ؛ فلم يَنْجُ منهم أحَدٌ.

كما قال تعالى: وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ [هود: 67-68].

وقال سُبحانَه: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ [الحجر: 83].

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15).

أي: ولا يَخافُ اللهُ ما يكونُ مِن عاقِبةِ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ.[123]

---

(123) اختُلف في معنى: ﴿ولا يَخافُ عُقْباها﴾ على قولين: الأول: لا يخافُ اللهُ تَبِعَةَ دَمْدَمَتِهِ عليهم.

وهو قول ابن عباس، ومجاهد وما في معناه.

الثاني: لم يَخَفِ الذي عقرها عُقْباها.

وهو قول الضَّحّاك، والسُّدِّيّ، ومقاتل.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٦٣٠) على القول الأول بقوله: «وفي هذا المعنى احتقار للقوم، وتعفية لأثرهم».

ووجَّه (٨/ ٦٣١) القول الثاني بقوله: «كأنه تعالى قال: انبعث لعَقْرِها وهو لا يخاف عُقْبى فعله؛ لكفره وطغيانه».

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/ ٣٧٠) القول الأول مستندًا إلى السياق، فقال: «والقول الأول أولى؛ لدلالة السياق عليه».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ اللَّيلِ

سُورةُ اللَّيلِ

سُورةُ اللَّيلِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (اللَّيلِ)، وأيضًا: وَاللَّيْلِ.

وسُمِّيت كذلك بسُورةِ: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا:[124]

فعن جابرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبِيِّ - ﷺ -، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبِيِّ - ﷺ -العِشاءَ، ثمَّ أتى قومَه فأمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفتَّانٌ أنت؟! اقرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)).[125]

سُورةُ اللَّيلِ مَكِّيَّةٌ،[126] وحُكي الإجماعُ على ذلك.[127]

---

(124) سُمِّيت بذلك؛ لافتتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه: وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (523/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (377/30).

(125) أخرجه مسلم (465).

(126) وقيل: مَدَنيَّةٌ، وقيل: فيها مَدَنيٌّ.
يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (121/7)، ((الوسيط)) للواحدي (501/4)، ((تفسير ابن عطية)) (461/5).

(127) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي.

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورة:

بَيانُ البَونِ بيْنَ حالِ المؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخِرة.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- القَسَمُ على تَفاوُتِ حالِ الخَلْقِ في الإساءةِ والإحسانِ.

2- بيانُ شَرَفِ المؤمِنينَ وفَضائِلِ أعمالِهم، ومَذَمَّة المُشرِكِينَ وسُوءِ أعمالِهم، وجزاءِ كُلٍّ منهم.

3- أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَ رَسولَه - ﷺ - للتَّذكيرِ بالحَقّ، وأنَّ عاقِبةَ المكَذِّبينَ النَّارُ، وأنَّ المتَّقينَ يَنجونَ منها.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (453/4).

سُورةُ اللَّيلِ

الآيات (1–11)

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا
مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ
إِذَا تَرَدَّى (11)

غريب الكلمات:

يَغْشَى: يُغطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ.

تَجَلَّى: أي: ظهَرَ وأضاءَ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ وبُروزِه.

لَشَتَّى: أي: مختَلِفٌ، جمْعُ شَتِيتٍ، مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، يُقالُ: شَتَّ جَمْعُهم، إذا تفرَّقوا، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ.

بِالْحُسْنَى: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وقيلَ غَيرُ ذلك، والحُسْنى: تأنيثُ الأحسَنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، وهو عِبارةٌ عن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فيه.

لِلْيُسْرَى: اليُسْرى فُعلَى من اليُسْرِ، وهو ضدُّ العسرِ، وأصلُ (يسر) هنا: يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وَخِفَّته.

لِلْعُسْرَى: مِن العُسرِ، وهو نَقيضُ اليُسْرِ، وأصلُ (عسر): يَدُلُّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ.

تَرَدَّى: أي: ماتَ، أو هلَك وسَقَط في جهنَّمَ، وهو تَفعَّل، مِنَ الرَّدى: وهو الهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَمْيٍ وما أشْبَهَه.

تفسير الآيات:

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1).

أي: أُقسِمُ باللَّيلِ وهو يُغَطِّي بظَلامِه الخلائقَ.

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2).

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر بنُورِه.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3).

أي: وأُقسِمُ باللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه.

كما قال تعالى: وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى [النجم: 45].

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4).

أي: إنَّ أعمالَكم الَّتي تجتَهِدون فيها -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، ومنكم المطيعُ والعاصي، ومنكم المُهتَدي والضَّالُّ، ومنكم المخلِصُ والمُرائي، ومنكم المتَّبعُ والمبتَدِعُ.

كما قال تعالى: مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ [آل عمران: 152].

وعن أبي مالِكٍ الأشـعَريِّ رَضِـيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسـولُ اللهِ - ﷺ -: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدو؛ فبائِعٌ نَفْسَه فمُعتِقُها، أو مُوبِقُها)).[128]

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5).

أي: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه فأنفقَه في سَـــبيلِ اللهِ، وجَعَل بيْنَه وبيْنَ سَـــخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا يَقِيه ذلك.

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6).

أي: وصدَّق بالجنَّةِ الَّتي وعَدَ اللهُ بها المحسِنينَ المتَّقِينَ.[129]

---

(128) قال النَّوويُّ: (معناه: كُلُّ إنسانٍ يَسْعى بنَفْسِه؛ فمِنهم مَن يَبيعُها لله تعالى بطاعتِه فيُعتِقُها مِن العذابِ، ومنهم مَن يَبيعُها للشَّيطانِ والهوى باتِّباعِهما، فيُوبِقُها، أي: يُهلِكُها).

((شرح النووي على مسلم)) (102/3).

رواه مسلم (223).

(129) اختُلف في معنى: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ على أقوال: الأول: صدَّق بالخَلَفِ من الله.

الثاني: صدَّق بأنّ الله واحدٌ لا شريك له.

الثالث: صدَّق بالجنة.

الرابع: صدَّق بموعود الله.

ووجَّه ابنُ القيم (٣/ ٣١٨ – ٣١٩) الأقوال الثلاثة الأولى بقوله: «والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال وأفضل الجزاء. فمن فسَّرها بلا إله إلا الله فقد فسَّرها بمفرد يأتي بكل جمع؛ فإنّ التصـديق الحقيقي بلا إله إلا الله يسـتلزم التصـديق بشُـعَبها وفروعها كلّها، وجميع أصول الدين وفروعه مِن شُعَب هذه الكلمة، فلا يكون العبد مُصدِّقًا بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمنًا بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمنًا بأنّ الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كلّ موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هي منفيّة في الحقيقة والخارج، ولا يكون مُصدّقًا بها من نفى الصفات العليا، ولا من نفى كلامه وتكليمه، ولا من نفى استوائه على عرشه،

كما قال تعالى: وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ [الحديد: 10-11].

وأنه يُرفع إليه الكلم الطيّب والعمل الصالح، وأنه رَفع المسيح إليه وأسرى برسوله إليه، وأنه يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله.

ولا يكون مؤمنًا بهذه الكلمة مُصدّقًا بها على الحقيقة مَن نفى عموم خَلْقه لكلّ شيء، وقدرته على كلّ شيء، وعلْمه بكلّ شيء، وبعْثة الأجساد من القبور ليوم النشور.

ولا يكون مُصدّقًا بها مَن زعم أنه يترك خَلْقه سُدًى لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان، والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه هو تفصيل لا إله إلا الله، فالمُصدِّق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كلّه.

وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها، وبالقيام بحقّها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقّها.

فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تَرْكها أو تَرْك حقّها.

ومَن فسّر الحُسنى بالجنة فسّرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله.

ومَن فسّرها بالخَلف ذكر نوعًا من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحُسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه، والتحقيق أنها تتناول الأمرين».

ورجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٦٥) القول الأول مستندًا إلى السنة، والسياق.

وهو قول ابن عباس من طريق عكرمة، وقول مجاهد من طريق أبي هاشم المكي، وقول عكرمة، ومقاتل، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ الله -جلّ ثناؤه- ذكر قبلَه مُنفِقًا أنفق طالبًا بنفقته الخَلَفَ منها، فكان أولى المعاني به أن يكون الذي عَقِيبَه الخبرُ عن تصديقه بوعد الله إيّاه بالخَلَف، إذ كانت نفقته على الوجه الذي يرضاه، مع أنّ الخبر عن رسول الله بنحو الذي قلنا في ذلك ورد».

ثم ذكر حديث أبي الدّرداء الوارد في نزول الآيات.

وزاد ابنُ عطية (٨/ ٦٣٥) قولًا نقله عن كثير من المتأولين أنّ معنى: «الحُسنى: الأجر والثواب مجملًا».

وقال سُبحانَه حكايةً عن ذي القرنَين: وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا [الكهف: 88].

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7).

أي: فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ.

عن عَلِيٍّ رَضِـــيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ – ﷺ – في جَنازةٍ، فقال: ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ النَّارِ، ومَقعَدُه مِن الجنَّةِ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العمَلَ؟! قال: اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فيُيَسَّرُ لعمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشَّقاءِ فيُيَسَّرُ لعَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قرأ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى [اللَّيل: 5 – 10])).[130]

---

(130) رواه البخاريُّ (4949) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2647).

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (8).

أي: وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه فلم يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، واستغنى عن رَبّه سُبحانَه فلم يَرغَبْ في طاعتِه ولا في ثوابِه.[131]

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (9).

أي: وكذَّبَ بالجنَّةِ.[132]

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (10).

أي: فسَنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ.

---

(131) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٣٥) في معنى الآية أنّ مَن «جعل ﴿بَخِلَ﴾ في المال خاصةً جعل» استغنى «في المال أيضًا لتعظم المذمَّة، ومَن جعل ﴿بَخِلَ﴾ عامًّا في جميع ما ينبغي أن نبذل من قول وفعل قال:» استغنى «عن الله تعالى ورحمته بزعمه».

(132) اختُلف في معنى: ﴿وَكَذَّبَ بِالحُسْنى﴾ على نحو اختلافهم في قوله تعالى: ﴿وصَدَّقَ بِالحُسْنى﴾.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٦٧) أنّ المعنى: وكذَّب بالخَلَف.

نحو ترجيحه في الآية الأخرى.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11).

أي: وما يَنفَعُه مالُه الَّذي بَخِلَ به، وأعرَضَ بسَبَبِه عن اللهِ، إذا هوى في جَهنَّمَ.[133]

(133) اختُلف في معنى: ﴿إذا تَرَدّى﴾ في هذه الآية على قولين: الأول: إذا سقط في جهنم فهوى.

الثاني: إذا مات.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٧٥) القول الأول مستندًا إلى الأغلب لغة، وهو قول ابن عباس، وأبي صالح، وقتادة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأن ذلك هو المعروف من التَّرَدِّي، فأما إذا أريد معنى الموت فإنه يقال: رَدِي فلانٌ، وقلَّما يُقال: تردّى».

وزاد ابنُ عطية (٨/ ٦٣٥) عن قوم أن المعنى: «تردّى بأكفانه من الرداء».

واستشهد ببيتٍ من الشعر.

سُورةُ اللَّيلِ

الآيات (12–21)

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا
يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي
مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20)
وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

غريب الكلمات:

تَلَظَّى: أي: تتوقَّدُ وتَشـتَعِلُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت.

يَصْلَاهَا: أي: يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ.

وَتَوَلَّى: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ (عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ.

يَتَزَكَّى: أي: يَتَطَهَّرُ، ويَتنمَّى، والتَّزَكِّي: تَكَلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخيرِ، وأصـــلُ (زكي): يدُلُّ على طهارة ونَماءٍ وزِيادةٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12).

أي: إنَّ علينا أن نبيِّنَ طريقَ الهُدى الَّذي يوصِلُ سالِكَه إلى اللهِ تعالى وجنَّتِه.

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13).

أي: وإنَّ لنا وَحْدَنا مُلْكَ الآخِرةِ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما.

كما قال الله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ [النساء: 134].

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14).

أي: فحذَّرْتُكم –أيُّها النَّاسُ– نارَ جهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ.

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15).

أي: لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ.

كما قال تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [الأعلى: 10 – 13].

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16).

أي: الَّذي كذَّب بالحقِّ، فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عن اتِّباعِه والعمَلِ به.

كما قال تعالى: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [القيامة: 31–32].

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17).

أي: وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه.

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18).

أي: الَّذي يتصَدَّقُ بأموالِه في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه وتَنميتِها.

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19).

أي: وليس إنفاقُه مِن أجْلِ أن يكافِئَ مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ.(134)

---

(134) نقل ابنُ جرير (٢٤/ ٤٧٨) عن بعض أهل العربية أنّ معنى الآية: «وما لأحدٍ من خَلْقِ الله عند هذا الذي يؤتي ماله في سبيل الله يتزكى ﴿مِن نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ يعني: من يدٍ يكافئه عليها، يقول: ليس يُنفق ما يُنفق من ذلك، ويُعطِي ما يُعطِي، مجازاة إنسانٍ يُجازيه على يدٍ له عنده، ولا مكافأةً له على نعمةٍ سلفتْ منه إليه أنعمها عليه، ولكن يؤتيه في حقوق الله ابتغاء وجْه الله.

قال: و﴿إلا﴾ في هذا الموضع بمعنى: لكن.

وقال: يجوز أن يكون الفعل في المكافأة مستقبَلًا، فيكون معناه: ولم يُرِدْ بما أنفق مكافأةً من أحد، ويكون موقع اللام التي في» أحد«في الهاء التي خفضَتْها ﴿عِنْدَهُ﴾، فكأنك قلتَ: وما له عند أحدٍ فيما أنفق من نعمةٍ يلتمس ثوابها.

قال: وقد تضعُ العربُ الحرفَ في غير موضعه إذا كان معروفًا، واستَشْهَدوا لِذلك ببيت النّابغة:

وقَدْ خِفْتُ حَتّى ما تَزِيدُ مَخافَتِي عَلى وعِلٍ فِي ذِي المَطارَةِ عاقِلِ».

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20).

أي: ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِ مالِه وَجْهَ رَبّه الأعلى، فهو يَطمَعُ في رُؤيتِه في الآخِرةِ.

كما قال تعالى: فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الروم: 38].

وقال سُبحانَه: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا [الإنسان: 9].

ثم رجَّحه ابن جرير (٢٤/ ٤٧٩) -مستندًا إلى اللغة، وأقوال السلف- قائلًا: «وهذا الذي قاله الذي حكينا قوله من أهل العربية، وزعم أنه مما يجوز هو الصحيحُ الذي جاءت به الآثار عن أهل التأويل، وقالوا: نزلت في أبي بكر بِعِتْقِه مَن أعتق من المماليك ابتغاء وجه الله».

ثم وجَّه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ وجْهِ رَبِّهِ الأَعْلى﴾ على هذا المعنى، فقال: «وعلى هذا التأويل الذي ذكرناه عن هؤلاء ينبغي أن يكون قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغاءَ وجْهِ رَبِّهِ الأَعْلى﴾ نصبًا على الاستثناء من معنى قوله: ﴿وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجْزى﴾؛ لأنّ معنى الكلام: وما يُؤْتِي الذي يُؤْتِي من ماله ملتمسًا من أحدٍ ثوابه، إلا ابتغاء وجه ربّه.

وجائزٌ أن يكون نصبُه على مخالفة ما بعد ﴿إلا﴾ ما قبلها، كما قال النّابغة:

وقَفْتُ فِيها أُصَيْلانًا أُسائِلُها عَيَّتْ جَوابًا وما بِالرَّبْعِ مِن أحَدِ
إلّا الأَوارِيَّ لَأْيًا ما أُبَيِّنُها والنُّؤْيُ كالحَوْضِ بِالمَظْلُومَةِ الجَلَدِ».

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٦٣٧) على ما رجَّحه ابن جرير قائلًا: «وذهب الطبري إلى أنّ المعنى: وليس يُعطي لِيُثاب نعمًا يُجزى بها يومًا وينتظر ثوابها.

وحوَّم في هذا المعنى وحلَّق بتطويل غير مُغْنٍ، ويتَّجه المعنى الذي أراد بأيسر من قوله، وذلك أن يكون التقدير: وما لأحد عنده إعطاءٌ ليقع عليه من ذلك الأحد جزاءٌ بَعْدُ، بل هو لمجرد ثواب الله تعالى وجزائه».

وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21).

أي: وأُقسِمُ إنَّ هذا المنفِقَ سيَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الضُّحى

سُورةُ الضُّحى

سُورةُ الضُّحى

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الضُّحى)، وأيضًا وَالضُّحَى:[135]

فعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: أفتَّانٌ أنت يا مُعاذُ؟! أين أنتَ عن سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وَالضُّحَى وإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ؟)).[136]

سُورةُ الضُّحى مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.[137]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

---

(135) قال ابن عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في أكثرِ المصاحِفِ وفي كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ، وفي «جامعِ التِّرْمِذيِّ»: سُورَةَ الضُّحَى بدونِ واوٍ.

وسُمِّيَتْ في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ»: سُورَةَ وَالضُّحَى بإثْباتِ الواوِ).

((تفسير ابن عاشور)) (393/30)

(136) أخرجه النسائيُّ (997).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (997).

والحديث أصلُه في الصَّحيحِ دونَ ذِكرِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ؛ أخرجه مسلم (465).

(137) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (464/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (456/4)، ((تفسير القرطبي)) (91/20)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (202/3).

ذِكرُ ما حفَّ الله به نبيَّه مِن ألْطافِه وعِنايَتِه.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- بيانُ ما للرَّسولِ - ﷺ - مِنَ الشَّرَفِ والمَنقَبةِ.

2- إبطالُ قَولِ المُشرِكينَ؛ إذ زَعَموا انقِطاعَ الوَحيِ عن النَّبيِّ - ﷺ -.

3- تذكيرُ النَّبيِّ - ﷺ - بجانِبٍ مِن نِعَمِ اللهِ سبُحانَه عليه.

4- إرشادُ النَّبيِّ - ﷺ - إلى المُداوَمةِ على مَكارِمِ الأخلاقِ؛ شُكرًا على نِعَمِه سُبحانَه، ومِن مَظاهِرِ ذلك: العَطفُ على اليتيمِ، والإحسانُ إلى السَّائِلِ، وعدَمُ كِتمانِ نِعَمِ اللهِ تعالى.

سُورةُ الضُّحى

الآيات (1–11)

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ
الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ
(10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

غريب الكلمات:

سَجَى: أي: سَكَن وغطَّى بظَلامِه كُلَّ شَيءٍ، يُقالُ: سَجا اللَّيلُ: إذا ادْلَهَمَّ وسَكَن، وأصلُ (سجو): يدُلُّ على سُكونٍ وإطباقٍ.

مَا وَدَّعَكَ: أي: ما ترَكَك، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على التَّرْكِ والتَّخليةِ.

وَمَا قَلَى: أي: ما أبغَضَك، والقَلْيُ والقِلَى: البُغضُ الشَّديدُ.

فَآَوَى: أي: ضَمَّك إلى عَمِّك، وكفاك المُؤْونةَ، وأصلُ (أوي) هنا: التجَمُّعُ.

عَائِلًا: أي: فَقيرًا، وأصلُ (عيل): يدُلُّ على فاقةٍ وحاجةٍ.

فَلَا تَقْهَرْ: أي: لا تَحقِرْه ولا تَقْهَرْه على مالِه؛ فتَذهَبَ بحَقِّه لضَعْفِه، والقَهْرُ: الغَلَبةُ والإذلالُ، وأصلُ (قهر): يدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلُوٍّ.

فَلَا تَنْهَرْ: أي: لا تَزجُرْه، والنَّهرُ: الزَّجْرُ، ومُغالَظةُ القَولِ، مِثلُ أن يقولَ: إليكَ عَنِّي.

تفسير الآيات:

وَالضُّحَى (1).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((اشتكى رسولُ اللهِ – ﷺ – فلم يَقُمْ ليلتَينِ أو ثلاثًا، فجاءته امرأةٌ فقالت: يا محمَّدُ، إنِّي لأرجو أن يكونَ شَـــيطانُك قد ترَكَك، لم أرَهُ قَرِبَك منذُ ليلتَينِ أو ثلاثٍ! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [الضحى: 1 – 3])).[138]

وَالضُّحَى (1).

أي: أُقسِمُ بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه.

وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2).

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا سَكَن بأهلِه فأظلَمَ واشتدَّتْ ظُلمتُه.[139]

---

(138) رواه البخاريُّ (1125)، ومسلمٌ (1797) واللَّفظُ له.

(139) اختُلف في معنى: ﴿واللَّيلِ إذا سَجى﴾ على أقوال: الأول: والليل إذا أقبل بظلامه.

الثاني: إذا ذهب.

الثالث: إذا استوى وسكن.

الرابع: إذا غطّى بهيمه ضوء النهار.

كما قال تعالى: وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا [الأنعام: 96].

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3).

أي: ما ترَكَك رَبُّك -يا محمَّدُ- وما أبغضَك.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4).

أي: ولَثوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها.

كما قال تعالى: وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 17].

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5).

أي: ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضَى.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6).

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٨٣) القول الثالث مستندًا إلى اللغة، وهو قول مجاهد، والضَّحّاك، وما في معناه، فقال: «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي في ذلك قول مَن قال: معناه: والليل إذا سكن بأهله، وثبت بظلامه.

كما يقال: بحرٌ ساجٍ: إذا كان ساكنًا، ومنه قَوْل أعْشى بني ثَعْلَبة:

فَما ذَنْبُنا إن جاشَ بَحْرُ ابنِ عَمِّكُمْ وبَحْرُكَ ساجٍ ما يُوارِي الدَّعامِصا

وقول الرّاجِز:

يا حَبَّذا القَمْراءُ واللَّيْلُ السّاجْ وطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النَّسّاجِ».

ووافقه ابنُ عطية (٨/ ٦٣٨).

أي: ألم يجِدْك ربُّك –يا محمَّدُ– يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك ويُرَبّيك؟

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7).

أي: ووجَدَك ضــالًّا عن معرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك القُرآنَ، وهَداك إلى الإيمانِ، وعرَّفك أحكامَ الإسلامِ، وقد كنتَ غافِلًا عن ذلك وجاهِلًا به قبْلَ النُّبُوَّةِ.

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْــلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [النساء: 113].

وقال سُبحانَه: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ [العنكبوت: 48].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا [الشورى: 52].

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8).

أي: ووجدَك فَقيرًا فأغناك.[140]

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9).

أي: فأمَّا اليتيمَ فلا تُهِنْه وتُذِلَّه، ولا تَظْلِمْه بأخذِ حَقِّه وإساءَةِ مُعامَلتِه.

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10).

أي: وأمَّا الَّذي يَسألُك شَيئًا فلا تنهَرْه وتَزجُرْه.[141]

---

(140) ذكر ابن القيم (٣/ ٣٢٨، ٣٢٩) في معنى الآية ثلاثة أقوال، ورجَّح القول الثالث منهما، فقال: «أحدها: أنه أغناه بعد فَقْرِه.

وهذا قول أكثر المفسرين؛ لأنه قابله بقوله: ﴿عائِلًا﴾، والعائل: هو المحتاج، ليس ذا العِيلة.

والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس، لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث: وهو الصحيح: أنه يعمّ النوعين نوعي الغنى؛ فأغنى قلبه به، وأغناه من المال».

(141) اختُلف في معنى: ﴿وأمّا السّائِلَ فَلا تَنْهَر﴾ على قولين: الأول: أنه سائل المعروف والصدقة، والمعنى: إذا جاءك السائل؛ فإمّا أن تعطيه، وإمّا أن تردّه ردًّا ليّنًا.

الثاني: أنه طالب العلم.

وجمع ابنُ القيم (٣/ ٣٢٩) بين القولين، فقال: «والتحقيق أن الآية تتناول النوعين».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٤١) أنه «على قول مَن قال: إنّ السّائِلَ هنا هو السائل عن العلم والدين، وليس بسائل المال، وهو قول أبي الدّرداء والحسن وغيرهما.

فقد جاء قوله تعالى: ﴿وأمّا السّائِلَ فَلا تَنْهَر﴾ بإزاء قوله تعالى: ﴿ووَجَدَكَ ضالًّا فَهَدى﴾، وبإزاء قوله: ﴿ووَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى﴾، قوله تعالى: ﴿وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وأمّا مَن قال: إنّ السّائِلَ سائل المال المحتاج، وهو قول الفراء وجماعة، فقد جعلها –أي قوله: ﴿وأمّا السّائِلَ فَلا تَنْهَر﴾ – بإزاء قوله تعالى: ﴿ووَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى﴾، وجعل قوله تعالى: ﴿وأمّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاء قوله تعالى: ﴿ووَجَدَكَ ضالًّا فَهَدى﴾».

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِــيَ اللهُ عنه، قال: ((بَيْنَما نحن جُلوسٌ مع النَّبيِّ - ﷺ - في المســجِدِ، دخَلَ رجُلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المســـجِدِ ثمَّ عَقَلَه،[142] ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ - ﷺ - مُتَّكِئٌ بيْنَ ظَهرانَيْهم، فقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبيضُ المتَّكِئُ. فقال له الرَّجُلُ: يا ابنَ عبدِ المطَّلِبِ، فقال له النَّبيُّ - ﷺ -: قد أجَبْتُك. فقال الرَّجُلُ للنَّبيِّ - ﷺ -: إنِّي سائِلُك فمُشَدِّدٌ عليك في المسألةِ، فلا تَجِدْ علَيَّ في نَفْسِــك، فقال: سَــلْ عمَّا بدا لك، فقال: أســألُك بربِّك وربِّ مَن قَبْلَك، آللهُ أرسَــلَك إلى النَّاسِ كُلِّهم؟ فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُــدُك باللهِ،[143] آللهُ أمَرَك أن نُصَــلِّيَ الصَّــلَواتِ الخَمْسَ في اليومِ واللَّيلةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُــدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نَصومَ هذا الشَّهرَ مِنَ السَّنةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُــدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن تأخُذَ هذه الصَّــدَقةَ مِن أغنيائِنا فتَقسِــمَها على فُقَرائِنا؟ فقال النَّبيُّ - ﷺ -: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ به، وأنا رســولُ مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضِمَامُ بنُ ثَعْلبةَ أخو بني سَعدِ بنِ بَكرٍ)).[144]

---

(142) عَقَلَه: أي: شدَّ على ساقِه مع ذراعِه حَبلًا بعدَ أن ثَنَى رُكْبَتَه.
يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (160/1).
(143) أَنشُدُك: أي: أسألُك، وأصلُه مِن النَّشيدِ، وهو الصَّوتُ.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (93/17).
(144) رواه البخاريُّ (63) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (12).

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11).

أي: وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك.(145)

---

(145) اختُلف في معنى: «النعمة» في هذه الآية على أقوال: الأول: النبوة.

الثاني: القرآن.

الثالث: أنها عامة في جميع الخيرات.

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ٣٢٩) العموم، فقال: «والتحقيق: أنّ النِّعم تعمّ هذا كلّه، فأُمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم، وأن يُحدّث بنعم الله عليه في الدين والدنيا».

واختُلف في هذا التحديث المأمور به على قولين: الأول: أنه ذِكر النعمة والإخبار بها، وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا.

الثاني: هو الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته، وتعليم الأمة.

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ٣٣٠) العموم، فقال: «والصواب: أنه يعم النوعين؛ إذ كلٌّ منهما نعمة مأمورٌ بشكرها، والتحدُّث بها، وإظهارها مِن شُكْرِها».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الشَّرْحِ

سُورةُ الشَّرْحِ

سُورةُ الشَّرْحِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الشَّرْحِ).(146)

سُورةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ.(147)

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ كَرامةِ النَّبيِّ – ﷺ – عندَ ربِّه تعالى.

---

(146) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ تسميةً لها بمصدرِ الفعلِ الواقعِ في مُفتتَحِها، وهو قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ.
يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (547/8)، ((تفسير ابن عاشور)) (407/30).
قال ابنُ عاشـور: (سُمِّيَت في مُعظَمِ التَّفاسـيرِ، وفي «صـحيحِ البُخاريِّ» و«جامعِ التِّرمذيِّ» سـورةَ أَلَمْ نَشْـرَحْ، وسُمِّيَت في بعضِ التَّفاسيرِ سُورةَ «الشَّرحِ»، ومِثلُه في بعضِ المصاحِفِ المَشْرِقيَّةِ...
وفي بعضِ التَّفاسيرِ تَسميتُها «سورةَ الانشِراحِ»).
((تفسير ابن عاشور)) (407/30).
(147) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ.
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (296/6)، ((تفسير ابن عطية)) (467/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (460/4)، ((تفسير القرطبي)) (104/20)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (207/3).

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- تَعدادُ ما أنعَمَ اللهُ به على رَســولِه - ﷺ - مِنَ النِّعَمِ؛ ومِن ذلك: شَــرْحُ صَــدرِه، ورَفْعُ قَدْرِه وذِكْرِه، ووَعْدُ اللهِ له بإزالةِ ما نَزَل به مِنَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ.

2- أمْرُ النَّبيِّ - ﷺ - بالمُداوَمةِ على الأعمالِ الصَّالِحةِ، والرَّغبةِ فيما عندَ الله، والإقبالِ على ذِكْرِه.

سُورةُ الشَّرْحِ

الآيات (1–8)

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

غريب الكلمات:

نَشْرَحْ: نُفْسِحْ ونُوَسِّعْ، أو نفتَحْ، وأصلُ (شرح): يدُلُّ على الفَتحِ والبَيانِ.

وِزْرَكَ: ذَنْبَك، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ.

أَنْقَضَ ظَهْرَكَ: أي: أثقَلَه حتَّى سُمِعَ نَقِيضُه، أي: صَوتُه، وأصلُ (نقض) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الصَّوتِ.

فَانْصَبْ: فاتعَبْ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، ومنه النَّصبُ: العناءُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتَّى يُعيِيَ.

تفسير الآيات:

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1).

أي: ألم نُوَسِّعْ لك صَدْرَك –يا محمَّدُ– ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقّ، والعمَلِ به، والقيامِ بالدَّعوةِ، وتحمُّلِ أعباءِ النُّبُوَّةِ، ومِن ذلك شَقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا؟[148]

كما قال تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا [الأنعام: 125].

وقال سبحانه وتعالى: أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [الزمر: 22].

وقال سُبحانَه حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [طه: 25–26].

---

(148) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٤٣) عن جمهور المفسرين أنّ «شرح الصدر المذكور هو: تنويره بالحكمة، وتوسيعه لتلقِّي ما يُوحى إليه».

ثم ذكر قولًا آخر، فقال: «وقال ابن عباس وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراء».

ثم علَّق عليه بقوله: «إذ التشريح شق اللحم».

وأورد ابنُ كثير (٨/ ٤٢٩) القولين، ثم رجَّح العموم، فقال: «وهذا وإن كان واقعًا ليلة الإسراء كما رواه مالك بن صعصعة، ولكن لا منافاة؛ فإنّ من جملة شرح صدره الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا».

ثم ذكر حديث أبي هريرة الوارد في الآثار المتعلقة بالآية.

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِــيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَســولَ اللهِ – ﷺ – أتاه جِبريلُ – ﷺ –وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَه فصَرَعَه، فشَقَّ عن قَلْبِه، فاستخرَجَ القَلْبَ، فاستخرَجَ منه عَلَقةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنك، ثمَّ غسَلَه في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ لَأَمَه، ثمَّ أعاده في مَكانِه، وجاء الغِلْمانُ يَسْعَونَ إلى أُمِّه –يعني: ظِئْرَه– فقالوا: إنَّ مُحمَّدًا قد قُتِلَ! فاستَقْبَلوه وهو مُنتَقِعُ اللَّونِ، قال أنسٌ: وقد كُنتُ أرى أثَرَ ذلك المِخيَطِ في صَدْرِه)).[149]

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: فُرِج عن سَقْفِ بيتي وأنا بمكَّةَ، فنزَل جِبريلُ ففرَج صَدْري، ثُمَّ غسَله بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأفْرَغه في صَدْري، ثُمَّ أطْبَقَه، ثُمَّ أخذ بِيَدي فعرَج بي إلى السَّماءِ الدُّنيا...)).[150]

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ عن مالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ، رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ – ﷺ –: ((بَيْنا أنا عندَ البَيتِ[151] بيْنَ النَّائِمِ واليَقْظانِ... فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، فشُقَّ مِن النَّحرِ

---

(149) رواه مسلم (162).

(150) رواه البخاري (349)، ومسلم (163).

(151) عندَ البَيتِ: أي: الكعبة.

يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (125/15).

إلى مَرَاقِّ البَطنِ،[152] ثُمَّ غُسِـــل البطنُ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، وأُتِيتُ بدابَّةٍ....))

الحديثَ.[153]

وفي روايةٍ: ((فأُتِيتُ بطَسْتٍ مِن ذهَبٍ فيها مِن ماءِ زَمْزَمَ، فشُرِح صدري إلى كذا وكذا)).[154]

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2).

أي: وحطَطْنا عنك إثمَك، وغفَرْنا لك ذَنْبَك.[155]

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3).

---

(152) مراقِّ البطنِ: هو ما سفَل مِن البطنِ، ورقَّ مِن جلدِه.

يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (126/15).

(153) رواه البخاري (3207)، ومسلم (164).

(154) رواه مسلم (164).

(155) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٤٤) عن جمهور المفسرين أنّ «الوزر هنا: الذنوب، وأصله: الثِّقل، فشُبِّهت الذنوب به».

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وكان رسول الله في الجاهلية قبل النبوة وِزْرُهُ صُحبة قومه، وأكله من ذبائحهم، ونحو هذا.

وقاله الضَّحّاك».

ثم نقل في معنى: «الوزر» ثلاثة أقوال أخرى: الأول عن بعض المتأولين: أنه «الثِّقل الذي كان على رسول الله، وحيرته قبل المبعث، إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتّجه له من الله تعالى أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثِّقل بنبوته وإرساله».

والثاني عن أبي عبيدة وغيره: أنّ «المعنى: خفَّفنا عليك أثقال النبوة، وأعنّاك على الناس».

والثالث عن النقاش في كتابه أنّ المعنى: «حضوره مع قومه المشاهد التي لا يُحبها الله تعالى».

ثم علَّق عليه بقوله: «وهذه كلُّها جرَّها المنشأ، كشهوده حرب الفجار، يُنَبِّل على أعمامه، وقلبه في ذلك منيب إلى الصواب، وأمّا عبادة الأصنام فلم يتلبّس بها قط».

أي: الَّذي أثقَلَك حَمْلُه.(156)

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4).

أي: ورفَعْنا ذِكْرَك رِفعةً عَظيمةً، فأعلَيْنا شَــأْنَك، ونوَّهْنا باسمِك، ونشَــرْنا لك الثَّناءَ الحسَــنَ العاليَ؛ تشريفًا لك وتعظيمًا.

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5).

أي: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا.

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6).

أي: إنَّ الشِّدَّةَ والضِّيقَ يُصاحِبُهما السُّهولةُ والرَّخاءُ.

كما قال تعالى: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا [الطلاق: 7].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضـي الله عنهما، قال: قال النبيُّ – ﷺ –: ((...واعلَمْ أنَّ في الصـبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ، وأنَّ الفرَجَ معَ الكربِ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا)).(157)

---

(156) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٤٥) في قوله تعالى: ﴿أَنْقَضَ﴾ أنّ «معناه: جعله نقْضًا، أي: هزيلًا مُعيبًا من الثقل».
ونقل قولًا آخر، فقال: «وقيل: معناه: أسمع له نقيضًا، وهو الصوت».
وعلّق عليه بقوله: «وهو مثل نقيض السُّفن، وكلّ ما حمَّلته ثقلًا فإنه يُنقض تحته».

(157) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (2803) واللفظ له، والطَّبَرانيُّ (123/11) (11243)، والحاكمُ (6304) مطوَّلًا.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)﴾.

أي: فإذا فرَغْتَ مِن كلِّ ما كنتَ به مشتغِلًا، مِن أمرِ دنياك وآخرتِك؛ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ.[158]

صحَّحه عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (3/333)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (6806)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (5/19)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (1/327)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (188)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (4/287).

ويُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (1/459).

(158) اختُلف في معنى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ﴾ على أقوال: الأول: إذا فرغتَ من صلاتك فانصبْ إلى ربّك في الدعاء.

الثاني: إذا فرغتَ من جهاد عدوك فانصبْ في عبادة ربّك.

الثالث: إذا فرغتَ من أمر دنياك فانصبْ في عبادة ربّك.

الرابع: إذا فرغتَ من الفرائض فانصبْ في قيام الليل.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٤٩٩) العموم، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: إنّ الله –تعالى ذِكره– أمر نبيَّه أن يجعل فراغه مِن كلّ ما كان به مشتغلًا من أمر دنياه وآخرته، مما آدى له الشغل به، وأمره بالشغل به إلى النّصب في عبادته، والاشتغال فيما قرَّبه إليه، ومسألتِه حاجاتِه، ولم يَخْصُص بذلك حالًا من أحوال فراغه دون حال، فسواءٌ كلّ أحوال فراغه، من صلاة كان فراغه، أو جهاد، أو أمر دنيا كان به مشتغلًا؛ لعموم الشرط في ذلك، من غير خصوص حال فراغٍ دون حالٍ أخرى».

واستدرك ابنُ عطية (٨/ ٦٤٦) على القول الثاني –مستندًا إلى أحوال النزول– قائلًا: «ويعترض هذا التأويل أنّ الجهاد فُرِض بالمدينة».

وانتقد ابنُ تيمية (٧/ ٦٣، ٦٤) القول الأول –مستندًا إلى السنة، والعموم– قائلًا: «وهذا القول سواء كان صحيحًا أو لم يكن، فإنه يمنع الدعاء في آخر الصلاة، لا سيما والنبي هو المأمور بهذا، فلابدّ أن يمتثل ما أمره الله به.

ودعاؤه في الصلاة المنقول عنه في الصحاح وغيرها إنما كان قبل الخروج من الصلاة، وقد قال لأصحابه في الحديث الصحيح: «إذا تشهّد أحدكم فليستعذ بالله من أربع، يقول: اللهم، إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدَّجّال».

وفي حديث ابن مسعود الصحيح لما ذكر التشهد قال: «ثم ليتخيّر من الدعاء أعجبه إليه».

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8).

أي: واجعَلْ رَغبتَك إلى اللهِ، فتَرجُوه وَحْدَه، وتَسألُه دونَ مَن سِواه، وتتوكَّلُ عليه لا على غَيرِه.

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ أصحابِ الجنَّةِ الَّتي احترَقت: عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ [القلم: 32].

وقد روت عائشة وغيرها دعاءَه في صلاته بالليل، وأنه كان قبل الخروج من الصلاة.

فقول مَن قال: إذا فرغتَ من الصلاة فانصبْ في الدعاء.

يشبه قول مَن قال في حديث ابن مسعود لما ذكر التشهُّد: فإذا فعلت ذلك فقد قضيتَ صلاتك؛ فإن شئتَ أن تقوم فقم، وإن شئتَ أن تقعد فاقعد.

وهذه الزيادة سواء كانت من كلام النبي، أو من كلام مَن أدرجها في حديث ابن مسعود، كما يقول ذلك مَن ذكره من أئمة الحديث؛ ففيها أنّ قائل ذلك جعل ذلك قضاء للصلاة، فهكذا جعله هذا المفسر فراغًا من الصلاة، مع أنّ تفسير قوله: ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ أي: فرغتَ من الصلاة.

قول ضعيف؛ فإنّ قوله: إذا فرغتَ مطلق، ولأنّ الفارغ إنْ أريد به الفارغ من العبادة فالدعاء أيضًا عبادة، وإن أريد به الفراغ من أشغال الدنيا بالصلاة فليس كذلك».

وزاد ابنُ عطية في معنى الآية قولًا نقله ولم ينسبه أنّ المعنى: «فإذا فرغتَ من الركعات فاجلس في التشهُّد وانصبْ في الدعاء».

تَفْسِيرُ
سُورَةِ التِّينِ

سُورةُ التِّينِ

سُورةُ التِّينِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التِّينِ)، وسُمِّيت (والتِّينِ) بإثباتِ الواوِ.(159)

سُورةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ،(160) وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.(161)

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إثباتُ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- القَسَمُ على أنَّ اللهَ خَلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ.

---

(159) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالتِّينِ في قَولِه تعالى: وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (527/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (419/30).

(160) وقيل: مَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (300/6)، ((تفسير الزمخشري)) (773/4).

(161) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ.

يُنظر: ((مصاعد النظر)) (209/3).

2- انحِطاطُ الإنسانِ إلى أسفَلِ سافِلينَ بالكُفرِ باللهِ تعالى.

3- إكرامُ المؤمنينَ بأعظَمِ المَثوباتِ.

4- بيانُ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ.

سُورةُ التِّينِ

الآيات (1–8)

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

غريب الكلمات:

وَطُورِ سِينِينَ: أي: طُورِ سَيناءَ؛ والطُّورُ: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وسِينِينُ لغةٌ في سيناءَ، وهو اسمٌ للمَكانِ الَّذي به الجَبَلُ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لحُسْنِه أو لبَرَكَتِه أو لنَباتِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ.

أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ: أي: أعدَلِ قامةٍ وأحسَنِ صُورةٍ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ.

مَمْنُونٍ: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ.

بِالدِّينِ: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ.

تفسير الآيات:

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1).

أي: أُقسِمُ بالتِّينِ، وأقسِمُ بالزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ.(162)

وَطُورِ سِينِينَ (2).

أي: وأُقسِمُ بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(163)

---

(162) اختُلف في التين والزيتون على أقوال: الأول: عني بالتين: التين الذي يؤكل، والزيتون: الزيتون الذي يُعصَر.

الثاني: التين: مسجد دمشق، والزيتون: بيت المقدس.

الثالث: التين: مسجد نوح، والزيتون: مسجد بيت المقدس.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥٠٤) –مستندًا إلى الأعرف لغة– القول الأول، وانتقد البقية، فقال: «لأنّ ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يُسمّى: تينًا، ولا جبل يقال له: زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربّنا –جلّ ثناؤه– بالتين والزيتون، والمراد من الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون.

فيكون ذلك مذهبًا، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التنزيل، ولا من قول مَن لا يجوز خلافه؛ لأنّ دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون».

ورجّح ابنُ تيمية (٧/ ٦٦) –مستندًا إلى اللغة– أنّ التين والزيتون: «هي الأرض التي بُعِث فيها المسيح، وكثيرًا ما تُسمّى الأرض بما يَنبتُ فيها، فيقال: فلان خرج إلى الكرْم وإلى الزيتون وإلى الرُّمّان، ونحو ذلك، ويراد الأرض التي فيها ذلك، فإنّ الأرض تتناول ذلك، فعبر عنها ببعضها».

واختار ابن القيم (٣/ ٣٣٤) أنّ المراد: كلا الشجرتين ومنبتهما ببيت المقدس –مستندًا إلى دلالة العقل–، وقال بعد ذكر المعنى الأوّل: «وهذا الذي قالوه حقّ، ولا ينافي أن يكون مَنبَته مرادًا؛ فإنّ مَنبتَ هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جُملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومَنبَتهما».

(163) اختُلف في قوله: ﴿وطور سينين﴾ على أقوال: الأول: هو جبل موسى ومسجده.

الثاني: هو كلّ جبل ينبت، وقوله ﴿سينين﴾ حَسن.

كما قال تعالى: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: 52].

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3).

أي: وأُقسِمُ بهذا البَلَدِ الآمِنِ، وهو مكَّةُ الَّتي يأمَنُ فيها مَن يَحُلُّ بها مِن البَشَرِ وغَيرِهم.

كما قال تعالى: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا [آل عمران: 97].

وقال سُبحانَه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4).

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ، على الفِطرةِ السَّليمةِ.(164)

الثالث: هو الجبل، و﴿سينين﴾ أي: مبارك حَسَن.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥٠٨) –مستندًا إلى اللغة– أنّ «طور سينين: جبل معروف؛ لأنّ الطور: هو الجبل ذو النبات، فإضافته إلى ﴿سينين﴾ تعريف له».

وانتقد –مستندًا إلى اللغة– القول بأن ﴿سينين﴾ نعت للطور، فقال: «ولو كان نعتًا للطور –كما قال مَن قال: معناه حَسَن أو مبارك– لكان الطور مُنوّنًا، وذلك أنّ الشيء لا يضاف إلى نعته، لغير علّة تدعو إلى ذلك».

وذكر ابنُ عطية [ط: العلمية] (٥/ ٤٩٩) –مستندًا إلى الإجماع– أنّ الطور جبل بالشام، فقال: «وأمّا طور سينين فلم يُختلف أنه جبل بالشام كلّم الله عليه موسى، ومنه نودي، وفيه مسجد موسى؛ فهو الطور».

ثم حكى الخلاف في معنى ﴿سينين﴾ كما هو مُثبتٌ في الآثار.

(164) اختُلف في قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ على أقوال: الأول: في أعدل خَلْق، وأحسن صورة.

الثاني: استواء الشباب، واكتمال القوة.

الثالث: قيل ذلك لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو مُنكبٌّ على وجهه غير الإنسان.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ [الانفطار: 6 – 8].

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5).

أي: ثمَّ ردَدْناه بعدَ موتِه إلى النَّارِ إنْ لم يُطِعِ اللَّهَ ويَتَّبعِ الرُّسلَ.(165)

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥١٣) –مستندًا إلى اللغة– القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يُقال: إنّ معنى ذلك: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن﴾ صورة وأعدلها؛ لأنّ قوله: ﴿أحسن تقويم﴾ إنما هو نعت لمحذوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم».

وقد رجّح ابنُ عطية (٨/ ٦٤٨) عموم الآية لهذه الأقوال كلّها، عدا القول الثاني –وهو قول عكرمة وغيره– فقد انتقده –مستندًا إلى الدلالة العقلية– فقال: «والصواب أنّ جميع هذا هو حسن التقويم، إلا قول عكرمة؛ إذ قوله يفضّل فيه بعض الحيوان».

(165) اختُلف في قوله: ﴿ثم رددناه إلى أسفل سافلين﴾ على أقوال: الأول: رددناه إلى أرذل العمر.

الثاني: رددناه إلى النار في أقبح صورة.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥١٦) القول الأول وانتقد الثاني مستندًا إلى الدلالة العقلية، والسياق، وعلَّل ذلك بقوله: «وإنما قلنا: هذا القول أولى بالصواب في ذلك؛ لأنّ الله –تعالى ذِكْره– أخبر عن خَلْقه ابن آدم، وتصريفه في الأحوال، احتجاجًا بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت، ألا ترى أنه يقول: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ يعني: بعد هذه الحُجج. ومحال أن يحتجّ على قوم كانوا منكرين معنًى من المعاني بما كانوا له منكرين، وإنما الحجّة على كلّ قوم بما لا يقدروا على دفْعه مما يعاينونه ويحسّونه أو يُقِرُّون به، وإن لم يكونوا له محسّين، وإذا كان ذلك كذلك، وكان القوم للنار التي كان الله يتوعّدهم بها في الآخرة منكرين، وكانوا لأهل الهَرَم والخرف من بعد الشباب والجَلَد شاهدين؛ عُلم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين، من تصريفه خَلْقه، ونَقْله إياهم مِن حال التقويم الحسن والشباب والجَلَد، إلى الهَرَم والضعف وفناء العمر، وحدوث الخرف».

ورجّح ابنُ كثير (١٤/ ٤٣٥) القول الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي: إلى النار. قاله مجاهد، وأبو العالية، والحسن، وابن زيد، وغيرهم.

ثم بعد هذا الحُسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يُطع الله ويتّبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [التين: ٦]».

وانتقد –مستندًا إلى الدلالة العقلية، والنظائر– القول الأول بقوله: «ولو كان هذا هو المراد لما حسن استثناء المؤمنين من ذلك؛ لأنّ الهَرَم قد يصيب بعضهم، وإنما المراد ما ذكرناه، كقوله: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾».

ورجّح ابنُ تيمية (٧/ ٧١ – ٧٤) وابنُ القيم (٣/ ٣٣٥ – ٣٣٧) القول الثاني، وانتقدا الأول –مُستَنِديْن إلى دلالة اللغة، والعقل، والنظائر– مِن وجوه: أحدها: أنّ أرذل العمر لا يُسمّى: أسفل سافلين، لا في لغة ولا عُرف، وإنما أسفل سافلين هو سِجّين الذي هو مكان الفُجّار، كما أنّ عِلّيّين مكان الأبرار.

الثاني: أنّ المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جدًّا، فأكثرهم يموت ولا يُردّ إلى أرذل العمر.

الثالث: أنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في ردّ مَن طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصًّا بالكفار حتى يستثني منهم المؤمنين.

الرابع: أنّ الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصّه بالكفار، بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ [الحج: ٥]، فجعلهم قسمين: قسمًا مُتوفّى قبل الكِبَر، وقسمًا مردودًا إلى أرذل العمر ولم يُسمّه: أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجرًا غير ممنون.

السادس: أنّ قول مَن فسّره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس، فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يُعرَف بالحسّ والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده، فمبدؤه خَلْقه في أحسن تقويم، ومعاده ردّه إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟.

الثامن: أنّ أرباب القول الأول مُضطرُّون إلى مخالفة الحسّ، وإخراج الكلام عن ظاهره، والتكلّف البعيد له؛ فإنهم إن قالوا: إنّ الذي يُرَدّ إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين.

كابروا الحسّ.

وإن قالوا: إنّ من النوعين مَن يُرَدّ إلى أرذل العمر.

احتاجوا إلى التكلّف لصحة الاستثناء، فمنهم مَن قدَّر ذلك بأنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم إذا رُدّوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة، فهذا وإن كان حقًّا فإنّ الاستثناء إنما وقع من الردّ لا من الأجر والعمل.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نِعمته على الإنسان بخَلْقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عِلّيّين، فإذا لم يؤمن به وأشرك به وعصى رسله نقله منها إلى أسفل

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6).

سافلين، وبدّله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نِعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نِعمته.

العاشر: أنّ نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ إلا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَهُمْ أجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤ – ٢٥]، فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمُستَثْنون هنا هم المُستَثْنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

الحادي عشر: أن يقال: إنّ الشيخ وإن ضعف بدنه فعقله أقوى من عقل الشاب، ولو قُدِّر أنه ينقص بعض قواه فليس هذا ردًّا إلى أسفل سافلين، فإنه سبحانه إنما يصف الهَرَم بالضعف، كقوله: ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ [الروم: ٥٤]، وقوله: ﴿ومن نعمره ننكسه في الخلق﴾ [يس: ٦٨]، فهو يعيده إلى حال الضعف.

ومعلوم أنّ الطفل ليس هو في أسفل سافلين، فالشيخ كذلك أولى.

الثاني عشر: أن يُقال: إنه سبحانه أقسم على ذلك بأقسام عظيمة بالتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين، وهي المواضع التي جاء منها محمد والمسيح وموسى، وأرسل الله بها هؤلاء الرسل مُبشّرين ومُنذِرين.

وهذا الإقسام لا يكون على مجرد الهَرَم الذي يعرفه كل واحد، بل على الأمور الغائبة التي تُؤَكّد بالأقسام، فإن إقسام الله هو على أنباء الغيب".

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّـــالِحاتِ،(166) فإنَّهم لا يُرَدُّون إلى النَّارِ؛ ولهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ، دائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ.(167)

---

(166) في قوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات﴾ أربعة أقوال: الأول: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى الخرف، وأرذل العمر وإنْ عمّروا طويلًا.

الثاني: إلا الذين آمنوا، فإنهم لا يُرَدُّون إلى النار.

الثالث: أنّ الذين آمنوا إذا هرموا يُكتب لهم ما كانوا يعملونه من الخير في حال الصِّـحَّة، بخلاف الكافرين، وعلى هذا يكون الرّد إلى أسفل سافلين معنيٌّ به جميع الناس، ثم يقع الاستثناء على هذا المعنى المضمر فيه، فيكون المعنى: لهم أجر غير ممنون، بعد أن يُرَدُّوا أسفل سافلين.

الرابع: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ فإنه يُكتب لهم حسناتهم، ويُتجاوز لهم عن سيئاتهم.

وقد علّق ابنُ جرير (٢٤/ ٥١٧) على القول الأول، فقال: «فعلى هذا التأويل قوله: ﴿ثم رددناه أسـفل سـافلين﴾ [التين: ٥] لخاص من الناس، غير داخل فيهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأنه مستثنًى منهم».

وعلّق (٢٤/ ٥٢٠) على الثاني، فقال: «فعلى هذا التأويل: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصـالحات﴾ مُسـتَثْنون من الهاء في قوله: ﴿ثم رددناه﴾، وجاز استثناؤهم منها إذ كانت كناية للإنسان، وهو بمعنى الجمع، كما قال: ﴿إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ [العصر: ٢ – ٣]».

وعلق ابنُ عطية (٨/ ٦٤٨) على القول الأول بقوله: «وهذا قول حسـن، وليس المعنى أنّ كلّ إنسـان يعتريه هذا، بل في الجنس مَن يعتريه ذلك».

ثم رجّح (٢٤/ ٥٢١) ابنُ جرير القول الثالث مستندًا إلى السياق، وعلّل ذلك بقوله: «وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة لما وصفنا من الدلالة على صحة القول بأنّ تأويل قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: ٥] إلى أرذل العمر».

(167) في قوله: ﴿غير ممنون﴾ أقوال: الأول: غير منقوص.

الثاني: غير محسوب.

الثالث: غير ممنون به عليهم.

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥٢٢) –مسـتندًا إلى اللغة– القول الأول، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصـواب قولُ مَن قال: فلهم أجر غير منقوص، كما كان له أيام صِحّته وشبابه.

وهو عندي من قولهم: حبل منين: إذا كان ضعيفًا، ومنه قول الشاعر:

أعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوها ثمانيَةٌ ما في عَطائِهِمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ.

يعني: أنه ليس فيه نقص، ولا خطأ».

ووافقه ابنُ القيم (٣/ ٣٣٧) بقوله: «وهذا هو الصواب».

كما قال تعالى: فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [الانشقاق: 24-25].

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7).

أي: فما الَّذي يجعلُك تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بأنَّ النَّاسَ يُحاسَبونَ على أعمالِهم، ويُجازَونَ بها بعدَ الحُجَجِ الَّتي بَيَّنَها اللهُ؟!(168)

وانتقد القول الثالث مستندًا إلى الدلالة العقلية، وإلى النظائر، فقال: «وهذا القول خطأ قطعًا، أتى أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل؛ فإنّ المِنَّة التي تُكدِّر النعمة هي مِنَّة المخلوق على المخلوق، وأمّا مِنَّة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذّتها وطيبها، فإنها منة حقيقة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ولَقَدْ مَنَنّا عَلى مُوسى وهارُونَ ونَجَّيْناهُما وقَوْمَهُما مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤ - ١١٥]، فتكون مِنَّة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة، وقال لموسى: ﴿ولَقَدْ مَنَنّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى﴾ [طه: ٣٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا ووَقانا عَذابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلى المُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِن أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية [القصص: ٥]، وفي الصحيح أنّ النبي قال للأنصار: «ألم أجدكم ضُلّالًا فهداكم الله بي؟! ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟!».

فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أمنّ.

فهذا جواب العارفين بالله ورسوله».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٦٤٩) أنّ كثيرًا من المفسرين قالوا: معناه: مقطوع.

وعلَّق عليه بقوله: «من قولهم: حبل منين، أي: ضعيف منقطع».

(168) ذكر ابنُ تيمية (٧/ ٧٦، ٧٧) أنّ المفسرين حكَوا هذا القول من قتادة على أنّ مراده به أن الخطاب في قوله: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ للرسول - ﷺ -، مع أنّ لفظ قتادة ليس صريحًا في ذلك، بل يحتمل أن يُراد به خطاب الإنسان، فإن كان أراد به ذلك فالمعنى صحيح، وإنْ أراد أنّ الخطاب لرسول الله - ﷺ - فالمعنى باطل وفاسد لفظًا ومعنى، فلا يقال للرسول: «فأي شيء يجعلك مُكذِّبًا بالدين؟» وإن ارتأت به النفس؛ لأنّ هذا فيه دلائل تدل على فساده، وبيَّن أنّ هذا

المعنى هو الذي أوجب نفور مجاهد عن أن يكون الخطاب للنبي - ﷺ -، وأنه أحسن باستعاذته منه؛ لأنه - ﷺ - لم يُكذِّب بالدين، بل هو الذي أخبر بالدين وصدَّق به.

اختُلف في معنى ﴿ما﴾ على قولين: الأول: أنها بمعنى: أي شيء يُكذِّبك؟ الثاني: أنها بمعنى: مَن الذي يُكذِّبك؟ وفي المخاطب أيضًا بـ ﴿يكذبك﴾ قولان: أحدهما: أنّ المخاطب بذلك رسول الله - ﷺ -.

الآخر: أنّ المخاطب بذلك الإنسان الكافر.

وذكر ابنُ القيم (٣/ ٣٣٩) أنّ مَن قال بأنّ ﴿ما﴾ بمعنى: أي شيء، تعيَّن على قوله أن يكون الخطاب للإنسان، والمعنى: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مُكذِّبًا بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟! ومَن جعلها بمعنى: فمن الذي يُكذِّبك، جعل الخطاب للنبي - ﷺ -.

وبعد أن بيَّن ابنُ عطية (٨/ ٦٤٩) أنّ الدين بمعنى الجزاء، ذكر أنه على القول بأنّ المُخاطَب رسول الله - ﷺ - يحتمل أن يكون «الدين بمعنى: جميع دينه وشرعه».

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥٢٤) أنّ ﴿ما﴾ بمعنى: مَن، وأنّ المُخاطَب رسول الله - ﷺ -، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول مَن قال: معنى ﴿ما﴾ معنى: مَن.

ووجّه تأويل الكلام إلى: فمَن يُكذِّبك -يا محمد- بعد الذي جاءك من هذا البيان من الله بالدين؟! يعني: بطاعة الله، ومجازاته العباد على أعمالهم».

ولم يذكر مستندًا.

وذكر أنّ بعض أهل العربية تأوَّل أنّ المعنى: «فما الذي يُكذِّبك بأنّ الناس يدانون بأعمالهم؟ وكأنه قال: فمَن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبيّن له خَلْقنا الإنسان على ما وصفنا».

وكذا رجح ابنُ تيمية (٧/ ٧٤ - ٧٧) أنّ المُخاطَب رسول الله - ﷺ -، وأنّ الصواب ما ذكره ابنُ جرير عن بعض أهل العربية (الفراء والأخفش) مِن أنّ المعنى: فمَن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبيّن له أنّا خلقنا الإنسان على ما وصفنا.

وانتقد أن يكون المُخاطَب: الإنسان الكافر مستندًا إلى النظائر، واللغة، والدلالة العقلية، وعلّل ذلك بـ «أنّ الإنسان في السورة إنما ذُكِرَ مُخبَرًا عنه لم يُخاطَب، والرسول - ﷺ - هو الذي أُنزِل عليه القرآن، والخطاب في هذه السور له كقوله: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ [الضحى: ٣]، وقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ [الشرح: ١]...

والإنسان إذا خوطب قيل له: ﴿يا أيها الإنسان﴾ [الانفطار: ٦، الانشقاق: ٦].

وأيضًا فبتقدير أن يكون خطابًا للإنسان يجب أن يكون خطابًا للجنس، كقوله: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح﴾ [الانشقاق: ٦]، وعلى قول هؤلاء إنما هو خطاب للكافر، خاصة المُكذِّب بالدين، وأيضًا فإنّ قوله: ﴿فما يكذبك بعد بالدين﴾ إمّا أن يكون معناها: فما يجعلك مُكذِّبًا بالدين، أو يكون معناها: فما يجعلك كاذبًا بالدين، والأول فاسد من جهة العربية، والثاني فاسد مِن جهة المعنى، فإنّ الدين هو الجزاء الذي كَذَّب به الكافر، والكافر كَذَّب به لم يُكذَّب هو به.

وأيضًا فلا يُعرَف في المُخبِر أن يقول: كذبت به، بل يقال: كذبته، وأيضًا: فالمعروف في كذَّبه أي: نسبه إلى الكذب، لا أنه جعل الكذب فيه، فهذا كلّه تكلُّف لا يُعرَف في اللغة».

وقد أجاب ابنُ القيم (٣/ ٣٣٨ - ٣٣٩) عن الإشكال اللغوي الذي أورده ابن تيمية، فذكر أنّ قول القائل: «كذّب بكذا. معناه: كذّب المُخبِر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به حتى كأنه نسي، وعدَّوا الفعل إلى المُخبِر به، فإذا قيل: مَن يُكذِّبك بكذا؟ فهو بمعنى: كذَّبوك بكذا سواء.

أي: نسبوك إلى الكذب في الإخبار به».

ثم ذكر إشكالًا على القول بأنّ المُخاطَب الإنسان، وأجاب عنه، فقال: «بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإنّ الخطاب إذا كان للإنسان وهو المُكذِّب -أي: فاعل التكذيب- فكيف يقال: له ما يُكذِّبك؟ أي: يجعلك مُكذِّبًا.

والمعروف كذبه إذا جعله كاذبًا لا مُكذّبًا، ومثل فسَّقَهُ إذا جعله فاسقًا لا مُفسِّقًا لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أنّ صدّق وكذّب بالتشديد يراد به معنيان: أحدهما النسبة، وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم.

والثاني: الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل.

قال الكسائي: يقال: ما صدّقك بكذا أو ما كذّبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب.

قلتُ: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ما حملك على الاجتراء عليه، وما قدّمك وما أخّرك، أي: ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير، وهذا استعمال سائغ موافق للعربية».

ورجّح ابنُ القيم (٣/ ٣٣٨ - ٣٣٩) أنّ الخطاب في الآية للإنسان، فقال: «وقوله سبحانه: ﴿فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أصح القولين أنّ هذا خطاب للإنسان، أي: فما يُكذِّبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان وهذا البرهان، فتقول: إنك لا تُبعث ولا تُحاسب، ولو تفكّرتَ في مبدأ خَلْقك وصورتك لعلمتَ أنّ الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خَلْقًا جديدًا، وأنّ ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خَلْقك الأول».

اختُلف في المراد بالدين على قولين: الأول: أنه الحساب.

الثاني: أنه حكم الله.

ورجّح ابنُ جرير (٢٤/ ٥٢٥) في معنى «الدين» القول الأول، وانتقد الثاني مستندًا إلى اللغة، فقال: «وذلك أنّ أحد معاني الدين في كلام العرب: الجزاء والحساب؛ ومنه قولهم: كما تدين تدان.

ولا أعرف من معاني الدين: الحكم في كلامهم، إلا أن يكون مرادًا بذلك: فما يُكذِّبك بعد بأمر الله الذي حكم به عليك أن تطيعه فيه؟! فيكون ذلك».

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8).

أي: أليس الله هو أعدَلَ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه؟!

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ الثَّالثُ والأربعونَ

ويَليه المجلَّدُ الرَّابعُ والأربعونَ، وأوَّله: تفسير سُورة العَلَقِ

الفهرس

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ، جَمِيعُ حُقُوقِهَا مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ.

لَا يُسْمَحُ بِنَشْرِهَا أَوْ تَدَاوُلِهَا إِلَّا بِإِذْنٍ كِتَابِيٍّ صَرِيحٍ مِنَ الْمُؤَلِّفِ."

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرّرُ الجامعُ لِتفاسِيرِ السّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا